لبنان في واقعه ومرتجاه

كمال جنبلاط
محاضرة ألقيت في «الندوة اللبنانية»
1956

إن هذا الموضوع الذي طلب مني الصديق الأستاذ ميشال أسمر معالجته هو واسع وشامل جداً وقد يشكل في الواقع موضوع أطروحة ضخمة، لما يتناول من النواحي الجغرافيّة والتاريخية والديموغرافية والاجتماعية والسياسية والدولية وسواها مما يفيض عن مستوى هذا البحث الصغير المقصود.
لذا فإننا سنتوقف عند بعض النقاط الهامة والخطوط العامة الرئيسيّة من التي يمكن أن تشكل ربما إضافات جديدة للقضية اللبنانية...

واقع المكان

1. الوضع الجغرافي الطبيعي

أهم ما يبرز لنا لدى انحنائنا على خريطة جغرافية بسيطة هو كون لبنان، أو جزء كبير منه، جبلاً، طبيعته جبلية - أربعة أخماس مساحته هي كذلك... والسهول الساحليّة لا تشكّل سهولاً بالمعنى الصحيح نظراً لضيقها الشديد، بل هي محض شواطئ وموطئ أقدام للجبال المحيطة بها والباسطة إياها بموازاة مياه الأزرق الفسيح. هذا ربما إذا استثنينا سهل عكار وبعض انفراجات شواطئ جنوبي لبنان. على أن سهل البقاع نفسه ليس هو سهلاً بالمعنى الصحيح بل سطيحة واسعة، أو وادياً كبيراً، أو فجوة طمرتها على مر الزمن رواسب المياه المنحدرة والجارفة لتربة جبلي حرمون (عربي) وجبال لبنان المحيطة بالوادي الرحب...
لبنان، هذا، جبال ولكنها ليست كبعض الجبال، بل يصدف أن تكون حداً وفاصلاً قاطعاً بين الداخل وبين البحر، نتيجة اتجاهها الطبيعي المتصل من الشمال إلى الجنوب بموازاة الشاطئ الضيق ذاته... وهي شبيهة بسلسلة فقرية هائلة لحيوان عظيم، إحدى آفات عصر ما قبل التاريخ، آفة شرقي البحر المتوسط، تنين مار جرجس بيروت... وهذا السد الجبلي هو مانع لما وراءه لأنه يكتنف معابر وثغرات قليلة وعالية جداً (كضهر البيدر ووادي القرن وسواه) تقطع اتصاله، وتحاول أن تصل بين عالم السفن (العالم البحري) وبين عالم اليابسة، أي بادية الشام... ألم يكن السفر إلى دمشق فيما مضى يوم كان الانتقال سيراً على الأقدام أو ركوباً على الخيل والدواب، ضربا من المغامرة الجريئة، إذ كان يزيد وعورة وصعوبة الطريق ما يتخللها أحياناً من مفاجأة غير سارة لبعض قاطعي الطرق: «جوزك يا مليحة راح على الشام وحده» على حد تعبير المثل القديم الدارج. على أنه يجب أن نستثني من هذه المعابر الجبلية ثغرة حمص الواسعة والقليلة الارتفاع، والتي كانت ولا تزال - بالرغم من إنشاء إخواننا السوريين لمرفأ اللاذقية - تشكل اتصالا طبيعياً بين طرابلس ومنطقة حمص وحماه... ولعل في هذا الوضع الجغرافي للممر المذكور مرتكز ومبعث مطالبة بعض مواطنينا الطرابلسيين فيما مضى بالانضمام إلى سوريا. على أن الواقع البحري والجبال اللبنانية المحيطة، ولو عن بعد قليل، بهذه المدينة - اليونانية الاسم - كان أقوى لربطها بلبنان من نزعة انجذابها من خلال الثغرة إلى الداخل...
وتشكل جبال العلويين امتداداً طبيعياً لجبال لبنان، وقد دخلت فعلاً بعض الشواطئ الشمالية في حدود سواحل فينيقيا الكنعانية، كما تشكل جبال فلسطين، أو أرض الميعاد، امتداداً جنوبياً للجبل اللبناني فيما بين فجوة الغور وساحل جنوبي شرقي المتوسط. وبعض تلك السواحل والقطاع كانت أيضاً فيما مضى جزءاً من فينيقيا... أولم يلقب العبرانيون فلسطين عندما جاءوا إليها بقيادة ابراهيم الكلداني وثم موسى الفرعوني ببلاد كنعان؟...
ولو صدف وكانت الجبال اللبنانية، كما أوضح ذلك الصديق الأستاذ جواد بولس، في اتجاه غربي شرقي، مثلا باتجاه الداخل، لكانت أوديتها معابر سهلة وطبيعية لهذا الداخل وواسطة اتصال وثيق بينه وبين عالم المتوسط، ولكانت سلاسل وفجوات أوديتنا تشمل وتغطي مناطق حماه وحمص ودمشق وحوران وسواها، ولكانت سوريا جزءاً سياسياً طبيعياً منا أو لكنا نحن جزءاً من سوريا.
إذاً، لبنان هو واجهة سوريا على البحر، بل واجهة هذا المربع من اليابسة المنبسط بين حدود بر الأناضول أو آسيا الصغرى في الشمال، والصحراء العربية، كما كان يلقب الأقدمون شبه جزيرة العرب جنوباً، أي عالم البادية، ومن شواطئ البحر المتوسط غرباً حتى حدود إيران السياسية والخليج الفارسي شرقاً. ولكن هذه الجبال على اعتبارها واجهة الداخل على البحر تكوّن في الوقت ذاته سداً وحاجزاً طبيعياً وعقبة...

على هذه العقبة، كأنها سنما جمل كبير رابض بموازاة بحر الروم - بحر العرب فيما بعد أيام ازدهار الحضارة الإسلامية - بحر الحضارة، قام عبر التاريخ ومنذ أقدم العصور واقع لبناني أصيل قد لا تخلو منه حقبة أو جيل، واقع سياسي مستقل، ولكن ليس دائماً تمام الاستقلال، نظراً لمستلزمات التبادل والاقتصاد البحري والسياسة التي كانت تضطر اللبنانيين القدماء أحياناً إلى مسايرة مصر أو الاعتراف بنفوذ العراق على هذه البلاد.
كما هي الحال اليوم عيناً بعين التاريخ، والتاريخ المنبثق من صميم الأوضاع الجغرافية قليلاً ما يتبدل.

فلبنان كيان طبيعي جغرافي حقيقي، كما أن العراق مثلاً، أو البلاد الجامعة ما بين النهرين والمتجمعة حول النهرين المخصبين، وكما لمصر - هبة النهر الواحد المخصب لوادٍ فريد تحيطه وتضمه الصحارى الشاسعة القاحلة، كما لبلاد مراكش وتونس والجزائر - بلد جبال الأطلس - لجميع هذه الأوطان كيانات طبيعية حقيقية... كما للجبل الأخضر في ليبيا وللسودان وللسعودية واليمن وسواها.

2. الواقع المكاني الأوسع والقاري

وإذا نظرنا إلى مخطط أوسع لخارطة الشرق الأدنى والأوسط وآسيا، لظهر لنا جلياً أن لبنان ليس فقط واجهة هذا المربع السوري العراقي على البحر المتوسط، بل أيضاً واجهة ومقدمة الشرق الأوسط بما فيه إيران وآسيا الوسطى... ولولا هذا الطوق الحديدي الشيوعي المانع حالياً لكل اتصال، لكانت علاقتنا مع البلاد القائمة على شواطئ بحر قزوين وبلاد قفقاسيا والتركستان وسواها من الشعوب الإسلامية و غير الإسلامية في آسيا الوسطى، لكانت هذه العلاقات تعود إلى سابق عهدها قبل أن خضعت هذه الشعوب لسيطرة الفاتح الروسي... وليس أبرز من دور لبنان في تجارة الاستيراد والتصدير للعالم العربي ولكافة بلاد الشرق الأوسط، ولتبادل السلع والنقد والعمليات التجارية المثلثة بيننا وبين كافة شعوب آسيا تقريباً، وبين هذه الشعوب وأوروبا ذاتها في عملية الوساطة التجارية، ليس أبرز من هذا الدور الاقتصادي الكبير للدلالة على ما ذهبنا إليه من تحديد لموقع لبنان، هذا الدور الاقتصادي التوسطي الذي هو امتداد وتضخم للمهمة التي قامت بها بيبلوس (أي جبيل) وصور فيما مضى من الأحقاب في نطاق الخدمات الاقتصادية التي كان يقوم بها سكان لبنان آنذاك في اتجاه طرق القوافل، وفي علاقاتهم ببلدان الشرق الأدنى وآسيا الصغرى والوسطى والشرق الأقصى ذاته، أي الهند والصين وبلاد أندونيسيا إلخ...
هذه الواجهة لآسيا الغربية على البحر المتوسط الذي يشكل لبنان جزءاً كبيراً منها، هي في الواقع باب آسيا الطبيعي للتعامل والتبادل مع أوروبا الغربية والشرقية وأفريقيا الشمالية... وليس من صدف القدر فحسب أن يكون لمرفأ بيروت، ولمطار بيروت، هذه الأهمية الدولية الكبرى...
وإذا صح يوماً كما أشرنا في أحد المؤتمرات الشعبية الدولية، وتم تحقيق المشروع الجبار الرامي إلى ربط المتوسط الشرقي بالشرق الأقصى عبر تركستان وأفغانستان والباكستان والهند، وذلك بواسطة طريق دولي واسع للشاحنات أو خط سكة حديد عريض - هذا الاتوستراد أو الخط الحديدي البانآسيوي - لأضحت واجهة آسيا الغربية، بما فيها تركيا، ولأضحت الواجهة اللبنانية بشكل خاص مرفأ آسيا الكبير على البحر المتوسط، نظرا لقصر المسافات الطبيعية البرية التي تصلنا بالشرق الأقصى، بالنسبة للمسلك البحري الطويل جدا والكثير الاعوجاج والمتعرج المنعطف في دورانه والتفافه على بلدان تشكل بحد ذاتها قارات بسبب اتساعها (كالعربية، وكهندستان)...

3. لبنان واجهة عالم المتوسط على عالم البوادي

في كل ما سبق وأوردناه، لا بد أنه كان للبحر المتوسط سهم في تكوين القاعدة اللبنانية، حيث أن لبنان يقوم كالطود العظيم المكابر على الشاطئ الشرقي لهذه البحيرة الكبيرة التي تكوّن - بتشابك المواصلات وتبادل السلع والأشخاص والأموال والأفكار واللغات فيها - إحدى عقد التشابك والحبك الإنساني الأكثر عمقاً وكثافة... ووظيفة هذه البحيرة الكبيرة كانت، منذ أقدم العصور حتى يومنا، الجمع والربط والوصل أكثر من التفريق والانفصال والتشتيت... فمنذ اكتشف الفينيقيون أوروبا البربرية آنذاك في الألف الثاني قبل المسيح - وهو سهمهم الحقيقي مع الأبجدية إن صحت نسبتها إليهم وحدهم، في الرقي وتطوير الحضارة - كان هذا البحر فسحة اتصال وترابط مكين بين شطآنه، لأنه يشكل في الواقع قارة حقيقية واحدة جامعة في مناخ مشترك، وطباع وعادات في التفكير والتصرف مشترك، واقتصاد مشترك، وحياة وحضارة مشتركة، وحتى الجنس البشري هو ذاته مشترك، القفقاسي في أوروبا كما هو في بلاد العرب، وفرعه الأرمنيودي الغالب في الواجهة اللبنانية.
وإن أشرنا إلى هذا الاشتباك والتفاعل والاشتراك في التراث وفي الحياة فلأن كل حضارة قامت وتغلبت على هذا الجزء من العالم كانت حضارة متوسطية بشمولها المساحي وقيمتها الإنسانية... وهكذا كانت حضارة مصر الفراعنة ثم أثينا، وثم

بعدها الحضارة الهلينستيكية التي أقامها هنيبعل في قرطاجة ليدافع عنها في وجه روما الناشئة البربرية آنذاك، وقاد تحالف الشرقيين جميعهم تقريباً لهذه الغاية، وثم حضارة الرومان، ثم بيزنطيا وحضارة الإسلام... وجميع هذه الحضارات - ومنها الحضارة الإسلامية - التي قامت كل منها على التوالي على أنقاض الحضارة السابقة الذاوية، كانت جميعها متوسطية من حيث الشمول المكاني، ومن حيث المفاهيم والقيم... وفي يومنا هذا، أليست الحضارة الأوروبية القائمة في شطرها المحض أوروبي هي التي تسيطر على البحر المتوسط، بعد أن بعد مجال الأخذ والاتصال بيننا وبين الحضارة الإسلامية الأولى، إثر انزوائها وتقلّصها التاريخي وغيبتها عن الخلق والإبداع؟ ولا نزال حتى الساعة نعالج هذا النقص الفاضح المؤلم في حياتنا العامة، ربما لأننا إلى حد بعيد انهمكنا في السياسة، على ما يفعل الأوروبيون في الظاهر لا في الواقع، ولم نتفرغ بعد إلى بعث التراث الإسلامي الإنساني الكبير، وأننا جعلنا كل همنا في تشييد البناء السياسي أكثر من انصرافنا إلى تركيز قواعد الرقي والحضارة... الأمر الذي يشكل إحدى الأزمات الأخيرة الكبرى للعالم العربي وللإسلام القائم، والذي يعكسه أحياناً واقع لبنان ذاته... لأن لبنان بوصفه يجمع إلى حد ما بين التراث المسيحي الغربي والتراث العربي الإسلامي قد يكون أفضل آلة لقياس واقع الحضارة وأزمات التقدم والحضارة في الشرق العربي.
إذاً لبنان واجهة سوريا والشرق الأدنى على البحر المتوسط، هو أيضاً، وبحكم ما سبق، واجهة البحر المتوسط - هذه القارة البحرية الضامّة لبلاد شطآن بحر الحضارة الأولى - واجهة البحر المتوسط على الداخل، على الشرق العربي والشرق الأدنى.
هذا الشرق العربي - والشرق الأدنى هو أيضا كذلك - الذي تقطعه بدوره وتجزأه وتفصله بحار حقيقية من خواء الصحارى وقحلها الواسعة، والمنتشرة والمسيطرة في كل مكان تقريباً على غالبية مساحة الشرق... على أن معظم هذه الصحارى هي كالأنهر، أو كالبحر المتوسط ذاته، تفصل ولا تفصل بين الجزر وأشباه الجزر المروية سقيا أو بالأمطار، هذه الجزر المرتفعة هنا وهنالك فوق مستوى لهبوط الأمطار معين... وإحدى هذه الصحارى مثلا يسير فيها على الدوام نهر متصل من الهجرة البدوية تنبع في العربية ذاتها، وتصب في آخر ترحالها في ضواحي الجزيرة العليا السورية وحلب حيث تلتقي بالأنهر والسواقي البشرية الأخرى النابعة من شبه بيداء براري آسيا الصغرى (أي بر الأناضول) وقفقاسيا والتركستان وآسيا الوسطى وسواها، فيمهد على الدوام هذا التداخل والاختلاط المحيي للجنس لقيام الحثية والقاسية والميتانية مثلا، وإمارات آل حمدان والأكراد وسواها في عهد المماليك المتأخر والقريب منا... على أن فيضان هذا النهر السامي البدوي العربي يفيض على الدوام، وفي تفرعات عديدة، بالمياه البشرية العارمة على ضفتيه العراقية والسورية الأردنية، ويطال منه جدول صغير لبنان فيما وراء جبال الهرمل مباشرة، المانعة والحاجزة للغيوم وراءها بحيث تهجم صحراء حمص حتى أقدام تلك الجبال. وليس من المستغرب إذاً أن تكون تلك الأصقاع العاتية آهلة حتى الساعة بالقبائل والعشائر لقربها المباشر من البادية، ولا عجب أيضاً أن يكون في لبنان وفق الإحصاء الرسمي، وعلاوة على ما أشرنا، ما يقرب من خمسة وثلاثين ألفا من البدو الرحل أو النصف رحل...
فالصحارى من نوع الشامي العراقي مثلاً التي يوجد فيها الكلأ، لا من النوع الأفريقي، هي كالبحر المتوسط ذاته تفصل وتفرق ولا تفصل ولا تفرق في آن واحد.

4. أثر الاقتصاد في واقع لبنان

هذا الموقع المتوسطي والوسطي فرض على لبنان، ولا يزال، منذ أقدم العصور، أن يكون بلداً تجارياً مزدهراً موجهاً في آن واحد نحو الداخل ونحو الخارج لربط ولوصل عالم المتوسط بعالم بلاد سوريا وما بين النهرين، وعالم البادية وما وراءها.
ويظهر أن سكان لبنان تحولوا سريعاً إلى هذا الاقتصاد التجاري، يوم أهملوا الجبال المكتظة قديماً بأشجار الأرز والصنوبر، المنبعثة رائحتها والمنتشرة على بعد ثلاثين أو أربعين كيلو مترا من الشواطئ - كأنها رائحة البخور، وكأنها جبل البخور، كما كان يلقبها القبطان الأقدمون - وعمّر أهل لبنان السواحل...
هذا الاقتصاد التجاري القديم والحديث والمستمر دفع باللبنانيين فوراً عبر البحار وجعلهم على الدوام قوم هجرة وملاحة واستعمار - بمعنى استعمار الأرض الغربية، أي سكناها - وشهد العالم القديم جالياتهم ومستعمراتهم في كل مكان... ولا يزالون في يومنا هكذا، ينفرون من بلادهم فرادى وجماعات في طلب التجارة والعيش، حتى أن لبنان قد يكون البلد الوحيد الذي نصف أبنائه مقيم وأكثر من النصف الآخر مهاجر من جميع أصقاع المسكونة... ولا تزال الهجرة قائمة على قدم وساق، ولكن ببعض التحول، إلى أميركا اللاتينية، وبخاصة إلى أفريقيا والبلدان العربية، ومع اختلاف في مصدر الهجرة - وكان جبل لبنان المستقل استقلالاً ذاتياً في عهد الأتراك هو مصدر هذه الهجرة - فقد أضحى مصدرها اليوم بعض المناطق المحرومة التي كانت خاضعة سابقا للنفوذ التركي مباشرة...
والتحول الكبير الحالي نحو البلدان العربية العامرة بفضل هبة البترول، له سوابق تاريخية عديدة حتى في أيام الفينيقيين... على أنه يشكل ظاهرة ارتباط جديد بالعالم العربي، نظراً لتعاظم موارد النفط المتزايدة وتمكن لبنان، بسبب واقعه السياسي والاجتماعي التقدمي، وبسبب عمل أبنائه، من تحويل جزء ملموس من هذه الموارد إلى لبنان.

وجدير بالذكر أن هذا الانطلاق البشري عبر البحار كان يعوض عنه، وربما يدفعه إلى الهجرة، سيل من الهجرة الدائمة إلى لبنان من الداخل... فكان الاقتصاد التجاري المعقد وأثره في رفع مستوى المعيشة عما يجاورنا من بلدان، كان لهذه الظاهرة أثر في جذب جدول حقيقي من البشر إلى عواصم لبنان وقراه، كما نشاهد ذلك اليوم في حال الجماعات الكردية والعلوية والحورانية والدرزية والفلسطينية والأرمنية وسواها، التي تهاجر إلى بلادنا، إما لأسباب سياسية، أو خاصة، بسبب ارتفاع أجور اليد العاملة في لبنان عما هي في البلدان المجاورة. وهذه الجماعات، علاوة على أنها كانت ولا تزال تزاحم اليد العاملة اللبنانية، كان لها أثر في انخفاض أجور العمل في لبنان، أو بقائها على مستواها تمكيناً للإنتاج الأوفر، وكانت لا تزال تشكل عاملاً كبيراً لاختلاط دائم للأجناس.
وهذا الوضع للاقتصاد التجاري، والوضع العلمي المتقدم أيضاً هو الذي جعل اليقظة السياسية، والنهضة الاستقلالية، والفكرة العربية ذاتها، تنمو وتزدهر في لبنان منذ منتصف القرن التاسع عشر قبل أي بلد عربي آخر...
وهو الذي جعل أيضاً الديموقراطية السياسية تنمو على هذا الشاطئ في الفترة ذاتها وقبل الفترة التي كانت أثينا تشع فيها على العالم المعروف آنذاك بأنظمتها وأفكارها الشعبية المتطورة؛ كما أننا نرى في اختيار أمراء لبنان، وفي نظام لبنان القديم فيما بعد، أول بوادر الديموقراطية السياسية في الشرق في العهد الحديث.
ولا يزال لبنان حتى يومنا ينعم بأفضل قسط من الحرية الشخصية والبحبوحة الديموقراطية التي تعرف إليها الشرق العربي...

أثر الوديان والتقاطيع الجغرافية الطبيعية، والقرية، ومستوى الارتفاع عن سطح البحر، في تكوين واقع لبنان.

على هذه السفوح المنفتحة نحو المشرق والمغرب، لعبت بعض العناصر الجغرافية والبشرية دوراً هاماً جداً في تكوين لبنان ولا بد من الإشارة إليها...
فالوديان اللبنانية كانت ولا تزال تشكل أحواضاً صغيرة منكفئة ومغلقة على نفسها حول بعض السهول الصغرى الداخلية أو حول الجداول والأنهر... فكانت هذه الأحواض الجبلية المقفلة أحياناً على البحر ذاته بوتقة تلملمت فيها الجماعات القادمة إلى جبال لبنان وانكفأت على نفسها فيها واستقرت، فطبعت بطابع الوادي، أو الإقليم الخاص بها، وتميزت بأسباب وأساليب للعيش والذهنية والعادات والتقاليد والطباع... وفي بعض هذه الأحواض، المحصنة طبيعياً والمقفلة على كل دخيل، أقامت وتبلورت بعض العائلات الروحية اللبنانية الكبرى... وللمثل لا أكثر نذكر وادي حاصبيا الشبيه بالتنور، ووادي التيم المغلق حيث نمت وتكونت الجماعة الدرزية الأولى، والروح الدرزية، وانصهرت كأنها في بوتقة صهر للمعادن... ثم وادي جزين والشوفين حيث استوطنت بعض الجماعات الشيعية التي ما لبثت أن استحلت مكانها الجماعات الدرزية والمسيحية. وكذلك هضاب وأودية كسروان وبلاد جبيل حيث استقرت الجماعات الشيعية والإسلامية ثم حلت مكانها الجماعات المارونية القادمة من ضفاف نهر العاصي في سوريا، واستقرت هنالك وتبلورت في هذه البوتقة الجغرافية وانصهرت وانطبعت بطابعها مع كر الأيام... وكان هكذا شأن وادي قاديشا أيضاً بالنسبة للطائفة المارونية حيث لجأ مركز الموارنة الديني الأعلى حقبة طويلة من الزمن...
ولعبت الدور ذاته في الصهر والجمع والانطباع وديان كثيرة أخرى في لبنان، كوديان عكار والكورة وسواها، بالنسبة لبعض الجماعات البشرية أو الدينية المختلفة.
هذه الوديان هي في الواقع أحد عناصر التقاطيع الجغرافية الطبيعية التي طبعت الأقوام الساكنين فيها بطابع متميز من العادات والذهنية والتقاليد، حتى لتكاد تعرف اللبناني إلى أية منطقة ينتسب من لهجته ونهجه في التصرف والتفكير وطباعه، وربما «خفة دمه أو ثقل حمله على سواه»... وإذا حصرنا الدلالة على هذه الوحدات الجغرافية الصغيرة الخاصة ذات الطابع البشري المتميز في المنطقة التي نحن منها، نظراً لمعرفتنا إياها، لورد على ذهني فورا: «الشوفان والعرقوبان والمناصف والشحار، وإقليم الخروب الأعلى والأسفل، الجرد، الغرب الفوقاني والغرب التحتاني...» وكل منطقة في لبنان يمكن تجزئتها إلى أقاليم طبيعية صغيرة ووحدات معنوية اجتماعية من هذا النوع... وهذه التقاطيع قد تتوافق كثيرا مع المديريات التي أوجدها بفطنة بالغة نظام لبنان القديم... وربما كان هذا التقسيم الإداري الطبيعي أحد أسباب الاستقرار والانضباط الإداري والسياسي الذي نعم به لبنان الصغير في عهد المتصرفيات...
هذا اللون من التمييز الإقليمي الذي يكاد يجعل من لبنان سجادة عجمية متنوعة الأعراق والألوان والزركشة، يزيد في نفوره وبروزه ضرب آخر من التمييز والتنوع البشري ناجم عن ارتفاع السكنى وانخفاضها بالنسبة للبحر... فيمكن تقسيم لبنان هكذا إلى عدة مستويات تنفرد كل منها ببعض الصفات، وعادات التصرف، والتفكير، والعيش، الخاصة... ولأنواع المزروعات وفق تسلسلها من البحر إلى أقصى قمم الجبال أثر، طبعاً غير المناخ، في تكوين مثل هذه المستويات... فالسواحل لا تزال على هذه الحال في الفينقة والكوسموبوليتية أحياناً، والطباع المحض بحرية، حتى أن رواية السعديات والدامور وأنفة وطبرجة والقرى الشاطئية قبل وبعد طرابلس، وحتى بعض أحياء صور وصيدا، تجعلنا نتصور أحيانا أن التاريخ لم يتحرك بالنسبة إليها إلا قليلاً... ثم المستوى الأوسط وهو الذي يمكن تحديده بالمناطق الواقعة ما بين السبعمائة والتسعمائة متر، ولأقوامها أيضاً عقلية

وصفات وعادات مشتركة ليس أقلها هذا التطبع بالخلق الوسط الجامع لحسن التدبر وللمرونة والبأس، الذي سيتغلب على الجرديين - أي سكان الجرد - إذا ما ارتفعنا إلى مناطق الجرود التي تعلو الألف متر وصاعداً فوق سطح البحر، وتتغلب إذ ذاك هذه السذاجة الطبيعية، هذه البساطة الناجمة ربما عن خفة ضغط الهواء وقساوة المناخ ومتانة الصحة، وشيء من العناد حتى في حزبياتهم المحلية... ويعلم الجميع ماذا قال النقاش الشهير عن سكان الجرود في لبنان...

أما القرية - هذه الوحدة الاجتماعية الطبيعية، وهذه الوحدة اللبنانية الطبيعية - فلها دور خطير يضاف إلى كل ما سبق في تكوين خلق اللبنانيين وصقل طباعهم وصهرها، وإذكاء عصبياتهم وغرضياتهم وحزبياتهم التقليدية المستمرة، وفي إبراز طبقاتهم وقياداتهم الاجتماعية وتطوير مفاهيمهم للحياة نتيجة تفاعلهم المتصل مع الأرض التي يملكونها في الغالب، والتي تكاد تكون قطعة من لحمهم ودمهم وامتداداً حقيقياً لشخصيتهم. كما للعائلة أيضا، وفق أنظمة المذاهب المختلفة، دور أولي في تكوين شخصية اللبناني، وسنترك إيضاح هذا العامل لمناسبة أخرى...

ويبدو هذا التميز قوياً إلى درجة أن أحد المتنقلين من قرية إلى قرية، أي النقاش المشهور، سبق له وأعطى لكل قرية اسم حيوان أو غير حيوان على ما تروي الأسطورة، وغالباً ما يكون الاسم موافقاً لبعض ما هي عليه القرية من خصال... وفي تلك التسمية ما يبرز أيضاً التنوع الذي أشرنا إليه، ولعل هذه التسميات من بقايا التوتمية Totem القبلية... ونستطيع أحيانا أن نعرف إلى أية قرية ينتسب فلان بالنظر إليه أو الإنصات إلى لهجته.

ومن هذه الوجهة يشكل لبنان اتحاداً فدرالياً واقعياً للقرى والأقاليم والتقاطيع الجغرافية الطبيعية، كما أن واقعه الحديث، كما سنرى، يشكل اتحادا فيدرالياً ما بين جبل لبنان الصغير - القطاع المحور للبنان، كما كانت بروسيا بالنسبة لألمانيا - وما بين المدن الساحلية، ما بين لبنان المقيم ولبنان المهاجر، بين هذا السيل من المتعيشين واللاهين والتجار وأرباب الاقتصاد والمتمتعين واللاجئين الذين يؤمونه من جميع أقطار الدول العربية، وبين هذا السيل الآخر المتصل من أبنائه الذين يغادرونه لأجل التعيش... فلبنان السياسي قائم على هذا التنوع الغريب العجيب، منه يستمد هذه الحرية، وهذه السماحة، وهذه التقاليد الراسخة في الشورى والديموقراطية... لبنان وجد فعلاً ليكون بلد اللامركزية، بلد «الكنتونات»... ولم ينجح حكم في لبنان سوى حكم اللامركزية، وإنما الديموقراطية السياسية الناجحة في النهاية لا تقوم إلاّ على مرتكز قوي ومتطور من الديموقراطية البلدية المحلية...

فسياسة قطع الرؤوس التي قد تنتسب إليها بعض الاتجاهات الفكرية للتيار الوطني العربي وللسياسة العربية في بعض الدول الشقيقة ستؤدي في النهاية إلى الفشل وإلى النقمة العامة والخيبة. لأن المهم هو إكثار الرؤوس، تنمية الرؤوس، شرط أن تنسجم وتتعاون (خدمة) للواجب وللمصلحة العامة، لا للتزاحم الشخصي والحزبي والقبلي والمصلحي، هذا الذي انكشفت عنه مراراً بعض الديموقراطيات الغربية والعربية.

واقع لبنان المعنوي

1. دور العائلات الروحية في واقع لبنان

وإذا ما انتقلنا الى مستوى آخر، نجد أن العائلات الروحية، أو الطوائف الدينية، قد كان لها أيضاً سهمها في تكوين واقع لبنان القديم والحديث على السواء.

فلبنان القديم - قبل الإسلام والنصرانية - تعرّف إلى مثل هذا التنوع الديني الكبير، هذا الازدواج الديني...

وللتنوير نذكر فقط ديانات الإله بعل والإله إبل والمذاهب المتشعبة التي تفرّعت عنها، وكأنها تحاول التعبير عن تنوع جغرافية هذا الوطن...

والعائلات الروحية اليوم تكاد لا تكون أديانا على قدر ما هي مؤسسات اجتماعية وسياسية وعائلات روحية كبرى اجتماعية بالمعنى الصحيح ... فالطابع السياسي،أو بالأحرى الرابطة الاجتماعية والعصبية هي الغالبة... ويكاد يكون لبنان على حد تعبير الاستاذ جواد بولس، اتحاداً فيدرالياً للعائلات الروحية.

فهو في الحقيقة محاولة تأليف ضخمة، ومحاولة تعاون وانسجام بين النصرانية والإسلام وجميع المذاهب والفرق والطرق الفكرية المشتقة عنهما، والتي تكاد تزيد عن الستة عشر مذهباً وفرقة، والتي هي، في الواقع، البقايا التاريخية والرواسب الباقية للقضايا الفكرية والفلسفية التي خضّت فيما قبل ضمير الشرق على توالي الأحقاب وتفاعل العقل العربي الشرقي في مختلف التيارات الحضارية الكبرى القادمة إلينا من الشرق الأقصى والهند وإيران وآسيا الوسطى والصغرى حتى أوروبا...

وكأن لبنان اليوم - إذا حككنا هذه القشرة السطحية من العادات المتغربة Occidentalisé - تجمّع فسيفسائي على نطاق أنموذجي مصغر لمنطقة العالم العربي، بل للشرق الأوسط كله، كما كان عليه في تسلسل تطورات التاريخ.

فإذا تعمقنا قليلاً جداً في الكشف عن جذور هذه المذاهب الفلسفية والفكرية لتبين لنا بوضوح أن العائلات الروحية اللبنانية تشكل في الواقع فروعاً لحضارات، أو ثقافات، أو جماعات، عميقة الأصول في التاريخ.

فهل يمكننا مثلا استيعاب «الرومية» في شقيّها الأرثوذكسي والكاثوليكي وفهم الذهنية الخاصة الناجمة عن هذين المذهبين، - الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك - دون الرجوع إلى الجذع الروماني البيزنطي الذي كان لتفاعله مع النصرانية الأولى هذا الأثر في تكوين المعتقد المسيحي الرومي؟.. فالحضارة الرومانية البيزنطية لا تزال تنبض من خلال لغة هذين المذهبين، وتبرز في اللغة التي يتعلمها الكهنة ويرتلون بها ألحانهم ويقرأون كتبهم المقدسة، ومن خلال الألحان «البيزنطية» ذاتها الرائعة في جمالها، وكذلك هذه الأبهة والتنظيم والروعة البالغة في الطقوس الدينية وفي سواها من أوضاع الجماعة «الرومية» المعنوية والتنظيمية، كتشكيل الكنيسة مثلاً، وتناقل معالم التراث القديم من أباطرة بيزنطيين وقديسين.
وفلسفة يونانية وحق روماني... هذه الحضارة البيزنطية التي لا تزال حية في بعض ألوانها بيننا هي التي لا تزال تفعل - على النمط ذاته أو على اختلاف في النمط - في ذهنية وحياة شعوب روسيا والبلقان وسواها من التي يضمّها الجذع الرومي المنحدر من تراث بيزنطيا وروما وأثينا وأنطاكيا وسواها. أوليس في هذا الرباط التاريخي الحضاري تفسير لهذا الارتباط المعنوي، وهذا النوع من الولاء، الذي يشعر به إخواننا الأرثوذكس نحو روسيا وشقيقاتها من دول البلقان - هذا بغض النظر عن أي اعتبار للمعتقد السياسي التي قد تعتنقه وتقوم بتنفيذه هذه الدول؟
ولا بد لفهم المارونية من أن نعود إلى المسيحية الأولى التي انتشرت - ولو تأخر انتشارها قليلاً في لبنان عن سواه من الأصقاع - في البيئة الآرامية الأولى المعاصرة ليسوع وللرسل مباشرة، فانطبعت النصرانية هذه بطابع آرامي شرقي مميز يختلف عن سائر الكنائس ...وقد حافظت المارونية على هذا الطابع الإقليمي الآرامي الشرقي عبر التاريخ بأسره حتى بعد تأكيد علاقتها بالبابوية الرومانيّة. وهذا الوجه المميز نلمسه - منذ هجرة الموارنة إلى لبنان من منطقة ضفاف العاصي السورية - في تشكيل الكنيسة البطريركي Patriarcal على الطريقة القديمة، وفي اللغة المستخدمة في الطقوس، وهي من أصل آرامي-سرياني - والتي كان يتكلمها الكثير من الموارنة اللبنانيين في علاقتهم الخاصة والعامة إلى فترة من التاريخ ليست ببعيدة جداً عنا. وربما الألحان الطقسية هي آرامية ... وموجز الدلالة أن ذهنية القوم ذاتها لا يمكن اكتناهها والتعبير عنها إلا بالعودة إلى التراث الآرامي السابق. حتى هذه البساطة الجميلة التي تبدو عليها المعابد - خارجها وداخلها - التي تناقض البذخ الرومي الرائع أيضا في لونه، وبساطة الطقوس والكثير من العادات، وهذا الشيء القائم بذاته، كل ذلك لا يمكن التماسه دونما العودة إلى الماضي السحيق.
ولا يمكن فصل الشيعة عن الشيء الكثير، ربما من تراث فارس واليونان أيضا، وعن الحركات الباطنية التي خضّت الإسلام وفعلت فيه منذ الحقبة التاريخية التي تلت موت الرسول مباشرة وتنازع أولي الأمر على الخلافة... هذه الخضّة العظيمة التي اكتنفت بطبيعة رد فعلها الكثير من الانفتاح الذي تشعب بها أحياناً إلى شتى المذاهب والهرطقات الخارجة، ربما أحياناً، عن المعتقد الإسلامي الأولي الأصيل، إنما كانت بمثابة البروتستانتية بالنسبة للجذع الأصل، على أنها أكثر بكثير من ذلك: إذ إنها في الواقع ترديد وتلبيس وتعبير - ولكن بشكل آخر- لجميع نزعات الشعوب القومية التي غلبت على أمرها في طفرة انطلاق موجة الإسلام السامي البدوي الفاتح، وتظهير للتيارات الفكرية والحضارية التي اصطبغت بها أوضاع هذه الشعوب - من يونانية ورومانية بيزنطية، ومن إيرانية عجمية ومصرية قديمة متفاعلة مع الأفلاطونية الجديدة، ومن نصرانية متلونة بشتى الهرطقات، ومن مغربية ذات طابع إقليمي مميز خاص انبثق عنها عند الفاطميين، وحتى فيها أثر من تلك المذاهب والآراء التي كان ولا يزال يتلقفها من الهند والشرق الأقصى عالم الشرق الأدنى، وبخاصة خليج فارس والشواطئ الشرقية والجنوبية للجزيرة العربية.
كل هذه التفاعلات الحضارية والتزاوجات الفكرية ستبلغ ربما حدّها الأقصى في الفاطمية الدرزية المتمثلة أيضا في لبنان، بقية باقية من أصداء وتجسدات الماضي القريب والبعيد. ويبدو لنا أن دين التوحيد- وهو التسمية الحقيقية الدرزية - أو مذهب الحكمة، هو تأليف ومزيج للتيارات التي أشرنا إليها كافة، وبخاصة للصوفية الإسلامية كما برزت من تفاعلها مع التراث الإيراني ومع التراث اليوناني الروماني الأصيل المتشابك ببعض الفرق الباطنية لمصر القديمة (أو ليس هرمس الهرامسة هو الإله فتاح عند المصريين القدماء ووديعة المواثيق في الإهرامات وسواها، من الصلات الفكرية الدالة؟)...وقد كرس العقّال الدروز بعض فلاسفة اليونان أئمة لهم ومعلمين روحيين، أمثال سقراط وفيثاغوروس وافلاطون وسواهم: «مولانا سقراط ومولانا فيثاغوروس وأفلاطون عليه السلام إلخ...» على حد لغة المتدينين ... على النحو ذاته الذي تبنوا به بعض كبار متصوفة الإسلام كما سبق وأشرنا:مولاي جلال الدين الرومي، وأبو زيد البسطامي، والحلاج قدس الله سره، وذو النون المصري وسواهم ... هذا من جهة، ومن جهات أخرى نرى للباطنية الإسماعيلية وللباطنية الفاطمية المغربية وللمسيحية أسهم مختلفة في بلورة وتكوين المعتقد والمناقبية...أضف إلى ذلك شيئاً ربما كثيراً من الشرق الأقصى،وبخاصة الصين والهند (نظريات التقمّص، والأدوار والتظهرات الناسوتية للمولى، والعودة في نهاية الزمان، وانتقال الأبرار إلى ارض الصين الداخلية المطهرة) والعديد من المسالك الروحية والتطهيرية التي تربط «الموحدين» على حد لغتهم بموطن كونفوشيوس ولاوتسي وموطن البراهمة... أو لم يكن بعض الرسل الكبار الأول كحمزة بن علي من إيران ثم رجعوا إلى ما وراء الواحات - أي بلاد التيبت ومغوليا على ما يبدو - في آسيا الوسطى ومنها يعودون في تناهي الزمن؟... أو لم يحصل التجلي الأول الناسوتي في بلاد الهند؟ أوليست قصة

بلهور الحكيم هي قصة البوذا ذاتها؟.. هذا مع طابع آري غريب في التشريع الداخلي (إطلاق الوصية، وحدة الزواج الصارمة، فكرة العائلة، سلطة الأب إلخ...)
أما الإسلام بيننا أخيرا لا آخرا - لأن تبياننا قد لا ينتهي في سرد المذاهب والمعتقدات في لبنان وليس آخرها شهود يهوى - الإسلام وهو، في الواقع، المعتقد الجامع والمنتصر في هذه المنطقة من العالم، والمرتكز الروائي التي تبرز عليه، أو بالنسبة إليه، جميع العائلات الروحية والمذاهب الأخرى، فهو، بيننا، إذا شئنا التعبير الحضاري الكامل تقريباً تجسّد حي للسامية الأصلية التي تكونت منها أكثر معتقدات هذا الجزء من العالم، والتي كانت تفيض بها على مدى التاريخ موجات الشعوب السامية القادمة من البوادي والصحارى المتاخمة جنوباً.
فللإسلام طابعه الخاص المميز المنحدر من أعمق أعماق نشأته في التاريخ... فهو على حد تعبير القرآن ذاته دين إبراهيم الحقيقي، معتقد الأحناف والتوراة، الذي إنما قصد محمد العودة إليه وتأكيده في وجه اليهودية وامتدادها وتبلورها - على انقلاب وفرق شامل - في المسيحية... فهو دين الساميين الأصيل بيننا - إذا صح التعبير-والحامل لتراثهم الصحراوي البدائي،من حيث انطلقوا، ولبعض تراثهم فيما بعد أيضاً.
والمعتقد الحنفي - بهذا المفهوم - هو الذي كان ولا يزال حتى قبل الإسلام - غطاء البادية وحجابها على هذه البقعة من العالم المتحضّر، وانقشاع البادية وإشراقها على أصحابها عن أروع ما تصوّره العقل الشرقي السامي من بساطة منزّهة عن كل تجسيد، ومن وحدانية وفردانية وعزلة صمدية للكائن المطلق. تلك العزلة التي هي شيء من امتداد تصوّر سر ضمير البدوي العربي في الصحراء حيث يسير ويقيم في الوحدة التامة، في العزلة التامة-لا حيوان ولا شجر.
والمعتقد الحنفي هو، علاوة على ذلك، الحامل للكثير من نواحي التراث الذي تفاعل به -أليس التشريع الإسلامي رومانياً يونانياً ويهوديا في جذوره؟ أوليس الإسلام الدين السائد في البقعة التي كانت تسيطر عليها الحضارات التاريخية السابقة للإسلام؟ أوليست الألحان التي تنشد بها آيات القرآن ألحانا بيزنطية؟ واجتهادات الفقهاء والمفتين في حقل الدين وحقل الدنيا، ونظريات المدارس الفلسفية المختلفة في الإسلام ،وكذلك الصوفية وما ذهبت إليه، أليست هذه كلها تجسيداً لتفاعل البيئة والتاريخ؟.. على أنه سريعاً ما أوقف على ما يبدو هذا التفاعل والأخذ والعطاء، أوقفه ربما اعتبار القرآن منزلاً نصاً وروحاً ولغة. ويبدو أيضا أن العهود التي امتازت بالإنشاء الفلسفي والحضاري والفكري هي التي تحولت، ولو قليلاً، عن هذا التصور، أو توغلت وتوغلت في التأويل إلى أقصى درجات التأويل، أو الاستناد إلى مختلف الأحاديث - التي قد تكون أحياناً مختلفة لحاجة الاجتهاد والتأويل.
على أنه في الدين الحقيقي للكتاب المنزل نصاً وروحاً ولغة، كان القرآن الموحي لهذه الفكرة الكونية والمصيرية الضخمة: فكرة دار الإسلام، وطن المسلم الروحي الحقيقي، فمهما تبدلت الأوطان واختلفت الشعوب... تلك الرابطة التي نراها، ولكن بنسبة أقل وأضعف، في ولاء المسيحي للكنيسة الأصلية، هذا الولاء الذي يتعدى نطاق الأوطان.
كل هذه الوجوه وسواها مما تشكله العائلات الروحية - الطرق الروحية - اللبنانية، يضفي على الواقع اللبناني، كما سبق وأشرنا، صبغته المميزة الخاصة التي قد لا يماثله بها أي بلد آخر في العالم.
ولا يستطيع أحدهم - والأجنبي بخاصة، واللبناني بشكل عام - أن يفهم اللبناني هذا أو ذاك، قبل أن يتبين ما وراء هذا المواطن الإنسان من تراث متكاثف منحدر من أقصى سلالم العصور.

الواقع العربي

العروبة، في مفهومنا، رابطة حضارية، حضارة أكثر مما هي قومية بالمعنى الصحيح. إذ ما من أمة في العالم تشمل، أو يمكن أن تشمل، هذا الامتداد والانتشار الكبير جدا لمختلف الشعوب والبلدان التي تفصلها البحار والصحارى والجبال، وسواها من العقبات الجغرافية، والتنوّع الشديد في المناخات والأجناس والأقاليم، وسواها من معالم التمييز والتفريق والتنوّع.
وهذه الحضارة تستند إلى مقومين أساسيين بارزين: الدين واللغة، وكذلك معالم البداوة المتبقية في العادات الاجتماعية، وفي الاقتصاد، والسياسة، والبداوة، ونصف البداوة، هي الغالبة على الشعوب العربية. كما أن الحضارة الغربية الأوروبية بشكل خاص لا يمكن فصلها عن المسيحية ومفهومها ونظرتها للإنسان من جهة، وعن التراث اليوناني الروماني وتشخيصه للفرد وللمواطن من جهة ثانية، وعن التقنية العلمية والصناعية من جهة أخرى.
والدين الإسلامي لا يكفي لتحديد العروبة... فكل مسلم ليس بعربي، بل اللغة هي أيضا عنصر ضروري لهذا التحديد: لغة الضاد. فكل من تكلم لغة الضاد وكان مسلماً من حيث المعتقد، أو من حيث التراث فقط،أو طابع التبدي دون المعتقد، كان عربياً... فالمستشرق مثلا، إلاّ إذا أبدل تراثه الخاص بالتراث العربي، ليس بعربي ولو كان مسلماً... على أن التراث المعنوي والسياسي والحضاري الذي تخزنه هذه اللغة وتنقله للأجيال في مفاهيمه وقيمه هو تراث إسلامي، مشبع بحضارة الإسلام وتحققاته عبر التاريخ. لأن العروبة من حيث هي حضارة لا يمكن أن تنفصل عن الإسلام، وإلا أضحت هذا الإطار السياسي الفارغ من كل عمق تاريخي وتكاثف تراثي... فمؤسس الإسلام هو ذاته الذي يعتبرونه اليوم مؤسس فكرة القضية العربية، ولو

أنه في الواقع كان قصده الإسلام أولا وآخراً ولم يفكر بالعروبة التي نقصد... والحضارة الإسلامية التي لمعت وازدهرت ما يقرب من جيل ونصف الجيل في بداياتها، على تفتّح مدهش وتقبّل وربط إنساني شامل عجيب تكاد، في نظرنا، حضارة أوروبا ذاتها لا تتلمس بعض قممه - بخاصة في الاقتراب من الحقيقة الأخيرة والتعبير عنها في الصوفية، والأدب، وبعض وجوه الفلسفة، وفي الشعر التحققي، وربما أيضا في الفن وتقنية البناء - وفي مستوى من التمزيق الكامل لمحدوديات الزمان والمكان، ومن تجاوز المعتقد الجامد الصرف إلى الإشراف على ربى الإنسانية والألوهية - هذه الحضارة التي نعني كانت حضارة الإسلام، الوارث والمؤلف لتراث من سبقه من حضارات.

وكلمة القومية ذاتها بمدلولها الحاضر هي غير موجودة في قواميس اللغة العربية وإنما ابتكرت لهذا المعنى في منتصف القرن التاسع عشر تقريباً، كما ينبهنا إلى ذلك مؤلف شهير .

وعلى هامش الملاحظة ، وعلى اعتبارها قضية الأساس، قد تكون مشكلة المسيحيين والأقليات المعتقدية والفكرية في الشرق العربي كافة قائمة على أن تقبل أو لا تقبل أن تكون «مسلمة» بالمعنى الذي أشرنا إليه، أي أن تشارك الإسلام في بعض مفاهيمه للأشياء وشواعره، وبخاصة تصوّره إياها وتعبيره عنها، أي أن تقبل هذه الأقليات بالإسلام مرتكزا ورائيا Back-ground لها: أن تكون مسلمة إسلاماً حقيقياً - من وجهة تحقق هذه الرابطة الفكرية والسياسية والحضارية - وذلك دون أن تفقد هذه الأقليات طابعها المميز الخاص، وتراثها الفني الوارف والحي أيضاً.

وقد تكون مشكلة الحاكمين للدول العربية، في مقابل ذلك، أن يعدلوا عن سياسة الصهر الكبتي المفروض، وقطع الرؤوس، وأن يعتمدوا مبدأ تنمية الرؤوس وتعاونها الحر في الانسجام، لا في تساوي الإكراه والانعدام أمام سلطان الدولة.

وفي رأينا أن ذلك الانصهار «الحقيقي» لن يتم، ولن يحل الانسجام الذي نلمح إليه، إلاّ إذا عدنا إلى الإسلام كما بدا عليه في بعض تحققاته التاريخية العظيمة، وبخاصة في حقبة الجيل ونصف الجيل الذي انفتح فيها على كل تراث قائم ودخيل ، فعبّ واستوعب من اليونان والرومان والفرس، وحتى من الشرق الأقصى، ما استطاع، وفي جو من حرية النقاش والاستيعاب والاستنتاج والرأي تامة، وأنتج العرب والمسلمون فيها أروع ما أنتجوا على مر التاريخ، قبل أن أوصد باب العقل في القرون الوسطى - القرون الوسطى الأوروبية والقرون الوسطى العربية التي لا نزال نتخبط فيها.

على هذه القمم المشرقة بنور العقل الطالب للحقيقة أياً كانت، وفي هذا المستوى الذي يتعدى مفهوم الزمان والمكان، على هذا السفح المنفتح على التحقق الإنساني العميق، تستطيع الأقليات الدينية والفكرية في الشرق أن تتلاقى مع الإسلام وأن تنصهر فيه وتلقى نفسها فيما بعد في هذا الانصهار ذاته متنوعة في بوتقة واحدة...وفي هذا المرتقب أيضا يستطيع الإسلام بدوره أن ينفتح بدون تحفظ للأقليات كافة وأن يحتضنها وأن ينصهر فيها لأنها تكون هي قد تمكنت من أن تنصهر فيه.

وقد تكون العقبة المانعة للأقليات المعتقدية والأثنية وسواها أنها هي أيضا لم تخرج، ولم تفلت تماما بعد، من ذهنية بيئة القرون الوسطى الفكرية.

مشكلة الإسلام العربي - كمشكلة كل معتقد - في أن يكون إسلاماً بما تضمنته نزعته الأساسية من قبول وتكريس وتكريم واحتضان لكل ذي كتاب. ويذهب بعض المسلمين في التأويل إلى القبول بكل رسالة وكتاب منزل، سابق للدعوة المحمدية أم لاحق على السواء.(راجع بعض كبار الأئمة والصوفية في الأمر).

وجميع الناس في النهاية، يلتقون على الشواطئ المتقابلة ليغرفوا الماء ذاته من الأوقيانوس ذاته وإنما، في جهلهم، يختلفون على درجة ملوحة أو عذوبة مياه البحر... كلهم في النهاية، نصارى، وكلهم، في النهاية، مسلمون...

وكان على لبنان الحديث، لبنان ما بعد 1919 ولبنان 1943، وهو امتداد طبيعي وتكريس وتأكيد لواقع لبنان هذا الأخير، وبعد أن قام الاختيار مكان الإكراه في الميثاق الوطني وانضم آخر الزعماء المطالبين بالوحدة السورية والعربية إلى الكيان اللبناني، كان على لبنان أن يدرك أنه- بوصفه على الأقل واجهة لشطر عربي كبير من الجزء الشرقي للعالم العربي- جزء من هذا العالم، وأنه لا يستطيع أن يتنكر لهذا الواقع العربي، لواقع الحضارة العربية الذي لبنان منه، لغة على الأقل، ولن نعدد النواحي السياسة والاقتصادية والمصيرية الأخرى.

وللدلالة والتلميح فقط، فإنه لا يخفى على اللبنانيين أنهم مرتبطون بالعالم العربي، وبجوارهم بشكل خاص، بهذا الارتباط العربي، بهذه العروبة أو العربية- بمعنى القاسم المشترك والصفة العامة والشاملة، لا بمعنى النزعة إلى الاتحاد السياسي والوحدة السياسة العربية القومية- هذا القاسم المشترك، وهذا الطابع العام الذي تنبهت الشعوب العربية إليه بداهة في مرحلة نضالها الأخير ضد الاحتلال العثماني وأربابه، في محاولتها التمييز بين التركي والعربي لكي تتيسر عملية الانفصال ويكون للاستقلال عن الباب العالي مبرراته المعنوية وأعذاره الواقعية، هذا مع بقاء كل شعب عربي على ولائه لبلده الخاص- اللبناني للبنان، والعراقي للعراق، والسوري لسوريا، وسواه لغيرها من البلدان.

وهذا القاسم المشترك، هذا الوجه من العربية الحقيقية لا يزال هو الضرورة الكيانية البديهية للنضال المصيري الذي تخوضه الشعوب العربية للدفاع عن نفسها ضد ما تبقى من الاستعمار الغربي من جهة، وما يهددها من استعمار شيوعي داخلي وخارجي مداهم.

أما في الاقتصاد، فيكفي ما أشرنا إليه من ارتباط واقع لبنان الجغرافي بحركة التبادل الواسعة مع الشرق العربي، وأنه الواجهة والمرفأ الطبيعي لهذه المنطقة... على أنه لا بد من الإشارة إلى أن تطور الصناعة العربية، والصناعة اللبنانية، والاقتصاد اللبناني، بشكل عام، أضحى مرتبطا أكثر فأكثر بالواقع الاقتصادي العربي... وسيزيد هذا الارتباط في المستقبل أيضا زيادة مضطردة، على اعتبار أن الصناعة اللبنانية إذا ما أرادت أن تكون ناجحة، عليها أن تعتمد على الأسواق العربية بوصفها سوقا واحدة ... وعلى اعتبار أن بعض النشاطات اللبنانية الاقتصادية والمعنوية ، وليس أقلها وظيفة اللبنانيين في إعمار البلاد العربية المختلفة اقتصاديا وحضاريا - هذه «الأميركا» الجديدة المنفتحة أمامهم - وبالتالي ما ينجم عن هذه الوظيفة من استدرار وكسب لجزء غير ضئيل من وارد الذهب الأسود، أن هذه النشاطات اللبنانية تربط، وستربط، لبنان أكثر فأكثر بالواقع العربي.

وقد يكون في طليعة الأهداف التي يجب أن يسعى إليها اللبنانيون، وكذلك جميع الدول العربية، تحقيق الاتحاد الجمركي العربي إلى نطاق يشمل على الأقل مربع الهلال الخصيب ودول الجزيرة العربية للحاجة الملحة لمثل هذا الاتحاد الاقتصادي في دور تنمية وتطوير الصناعة العربية...

وكان على العروبيين الاتحاديين أن يبدأوا من هنا لو شاؤوا وقصدوا الفكرة العربية المجردة عن كل خيال، لا أن يحاولوا تشييد الهرم على رأسه، في نزعاتهم وتصوراتهم الرامية إلى تحقيق تخيلات عاطفية مريضة تخالف منطق تطور الواقع، وكان عليهم أن يحافظوا على مؤسسة الجامعة العربية، وعلى مبدأ مساواة الأعضاء فيها، وعلى روح التفاهم والتعايش السلمي على الأقل فيها، لا أن يشكلوا المعول الضارب في جذع الجامعة لهدمها...

وكان لبنان في العصر الحديث قد ساهم مساهمة أولى وإيجابية كبيرة في بعث اللغة العربية من ركودها وانزوائها التاريخي، في القرن التاسع عشر، وكان ولا يزال حتى الساعة من بين أفضل شعراء وأدباء اللغة العربية شعراء وأدباء لبنان، وكدت أقول أفضلهم إطلاقا لولا بعض الأسماء التي ترد على فكري...وكان لبنان أيضاً - نظراً لأسبقيته في التمتع بالاستقلال الذاتي، ولوضعه المتطور التجاري، ولاتصاله الباكر مع الغرب - بدأ حركة التحرر العربي السياسي قبل كل بلد عربي آخر في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، فكان فعلاً مونتنغرو Montenegro الشرق العربي... وشاهد لبنان كافة الحركات التوحيدية العربية ذاتها تنبثق فكرياً في هذا البلد، على أن الواقع اللبناني كان يغلب على الدوام... وإن صح في هذا المجال الإشارة إلى هذا التناقض الملتصق بكل فكرة اتحادية سياسية عربية قامت في لبنان في طفرة النقمة والتطرف، لظهر لنا بكلمة معبرة أن نقول: إن لبنان كان وطن كل فكرة عربية تقريباً وقبرها في آن واحد، إذ لم ينجح حزب إتحادي عربي واحد في هذا البلد... كما أنه أيضاً لم ينجح حزب عربي واحد في تحقيق أية وحدة سياسية خارج هذا البلد أيضاً...

وعلى أساس هذا الواقع العربي وهذا الاشتراك والمساهمة في الحقل العربي، وعلى توضيح هذا القاسم المشترك، هذه العربية - وهذه الكلمة أفضل للتعبير من كلمة العروبة - ودورها في النضال السياسي العربي، أعلن لبنان نفسه ذا وجه عربي سنة 1943 ودخل عضواً في جامعة الدول العربية - هذا النوع من الرابطة، من الكومنولث الإقليمي والمصلحي والحضاري الذي ألف في صبغته المبتكرة وجمع بين التنوع الكبير والتناقض في المصالح، والنزاعات المختلفة التي تشكلها مجموعة الأقطار العربية.

الهجرة اللبنانية - اللغة المزدوجة - الإرساليات والمدارس الأجنبية - الأوقاف الطائفية -الاقطاع الخ...

لعبت هجرة اللبنانيين إلى البلدان العربية، من جهة، وإلى العالم الأوسع كافة من جهة أخرى، دوراً بارزاً في تكوّن شخصية اللبناني المقيم، إذ كشفت له أولاً عن إمكانات تحقيق مواهبه ونشاطاته اللامحدودة تقريباً وولدت فيه روح التحدي ورغبة المغامرة الإيجابية البناءة -Pioneer's spirit- وذهنية المبادرة الحرة التي عرف بها على مدى التاريخ، وبخاصة في العصور الحديثة، فكان لبنان فعلاً، في العالم العربي، بلد المبادرة الحرة، في عكس تيار التواكلية التقليدية.... وهذه النشاطات لم تقتصر على الاقتصاد فقط بل تعدتها إلى السياسة والإدارة والعلم والأدب والاجتماع.

ثم أن هذه الهجرة لها أثر في انفتاح شخصية اللبناني على المدى الحيوي الأقرب - دنيا العرب - وعلى المجال البشري الأوسع - الدنيا بالمعنى الشامل - وقد نجم عن هذا الانفتاح شيء من الكوسموبوليتية، أو الخضرمة العوالمية السطحية الملازمة لكل تفكير، أو شعور، أو تبادل إنساني، لم يتوغل عميقا في الإنسان - هذه الفينقة بالمعنى المركنتيلي للكلمة، لا بالوجه المنفتح الخيّر - ونشهدها أحيانا في الأوساط المدينية .... ولكن ما من شك في أن المهاجرة أدّت إلى تقوية شعور اللبناني بإنسانيته، وأيضاً بعربيته، وبالتالي إلى تظهير الدور الذي يستطيعه اللبناني على أحد خطوط تقاطع الإنسانية والعربية حيث يقوم لبنان.

ومنذ فجر التاريخ كان للبنان جاليات في ميزوبوتاميا - بلاد ما بين النهرين - وفي مصر، وعلى شواطئ البحر الأحمر، وفي آسيا الصغرى، وفي سوريا، وفي أوروبا المكتشفة حديثاً وسواها، كما هو حال اللبنانيين اليوم، يساهم المهاجرون فيها بإنشاء العلاقات وربطها ونشر ما اكتسبوه وانتخبوه من حضارة، إذ أن هذه كانت وظيفتهم على مر العصور، في النشر والربط والاتصال الآخذ والعاطي أكثر من ابتداع حضارة بهم.

وفي العصر الحديث القريب قام اللبنانيون بنقل الحضارة الغربية إلى البلاد العربية بفضل انتشارهم الواسع في أقطار أوروبا كافة، والأمريكيتين تقريباً، وبفضل اتصالهم البحري المباشر بالغرب، وبخاصة بما ترجموه إلى لغة الضاد، وما ألفوه وكتبوه ونشروه، وما أنشأوه من صحافة ودور للطباعة في لبنان ومصر وسواها ، وكذلك أيضاً بفضل هذا الغرب المقيم بينهم والذي ما لبث، في غضون الجيلين السابقين، أن جاء بنفسه إلى ديارهم في شكل المؤسسات العلمية والإرساليات والمدارس والكليات الأجنبية . فحقق فعلا هذا الفتح الحضاري الحقيقي الذي كان بمثابة تطعيم دائم وفاعل في ذهنية اللبناني، وثم في ذهنية العربي، حتى أضحى لبنان، ولا يزال، المركز الأول في الشرق الأوسط على إطلاقه للعلم ولاقتباس المعرفة والتخصص وللتطبيب وللاستشفاء....هذا الفتح العقلي الحضاري هو في الواقع انتصار للصليبية الغربية الحقيقية بعد كسر التاريخ فضل صليبية القرون الوسطى الدينية واندحار وتقلص صليبية الاستعمار السياسي الحديث.

وقد كان لهذا الفاعل المبكر بحضارة الغرب، أن قام اللبنانيون بالدور في بعث التراث العربي المندثر، وفي تنمية الحركة السياسية والديموقراطية، وفي إنشاء الصحافة العربية والطباعة العربية، وفي تنظيم الإدارة والخدمات الاجتماعية في مصر والسودان والعراق والأردن والسعودية وسوريا ذاتها ،وسواها من الأقطار، وفي نشر العلم وتنمية الاقتصاد؛ ولا يزال بعض كبار رجالات العرب السياسيين والإداريين ينحدرون من أصل لبناني... ولا يزال اللبنانيون يواصلون القيام بهذا الدور التنظيمي والاقتصادي والحضاري في أكثر هذه الأقطار، وبخاصة في دول وإمارات شبه جزيرة العرب، حيث تفجرت فجأة كحلم ألف ليلة وليلة ثروة الذهب الأسود.

وكان أثر وانعكاس الهجرة اللبنانية المتوجّهة إلى المدى العربي، إلى الذهنية اللبنانية، أن تقوّى الشعور بتشابك المصالح والاشتراك الفعلي بإحدى نواحي واقع العيش والمصير، وكذلك كان أن تنبه اللبنانيون أكثر فأكثر إلى ما يمكن أن يجنوه من منافع جمة من الاشتراك والتشابك.

وكان أثر وانعكاس الهجرة المتوجهة نحو العالم بأسره - هجرة ما يزيد عن نصف المواطنين إلى ما وراء البحار - في تكوين الروحية الإنسانية في اللبناني وما يرافقها ويلازمها أحياناً من «خضرمة عوالمية « cosmopolitisme . كما أشرنا، وقد ظهر ذلك جلياً في ازدواجية لغة اللبنانيين وربما تعددها إلى أكثر من لغتين.... فلبنان، وبخاصة المناطق التي انطلقت منها الهجرة و عادت إليها،هو بلد اللغتين، في الواقع، بلد تعدد اللغات.... هذا واقعه... فأكثر اللبنانيين تقريباً يستطيعون التكلم بالعربية لغة بلادهم اليوم، وبلغة أو لغات المهاجر، وفي ذلك ما فيه من ترابط وتشابك حضاري تنقله وتخزّنه وتحييه اللغة الأجنبية في عقل اللبناني، علاوة على ما للسكنى والعمل في المهاجر والسفر والاختلاط من فعل في الذهنية .... ويزيد في هذا الأثر صلات المقيم بالقريب المهاجر، أو الجار المهاجر، بالمراسلة والتذاكر والحنين الدائم، علاوة على هذا الارتباط الاقتصادي المهم الذي تشكله الإعانات والأموال المرسلة سنوياً أو شهرياً، وتوظيف المال حيناً في الوطن الأم، والعودة إلى البلاد مع بقاء الأعمال الاقتصادية على ما هي عليه في دار الهجرة، ومختلف وسائل التأثير والاتصال المادي والمعنوي... مما يجعل جزءاً كبيراً من لبنان بلداً ذا طابع مميز خاص لا يمكن التعبير عنه بأفضل من: وطن المقيم المهاجر أو المهاجر المقيم في آن واحد.

أما الإقطاع، وقد ألغيت معالمه المادية الإدارية والعقارية سنة 1863، فقد ساهم في مرحلة ازدهاره التاريخي في بناء كيان لبنان والمحافظة عليه، حتى أن تاريخ لبنان الحديث هو في وجهه الداخلي تاريخ بعض العائلات الإقطاعية الكبرى المعروفة.... وعلاوة على هذا فإن أثر هذه القيادة، وهذا النوع الخاص من ارستقراطية الأرض والسيف والخيل والشرف، يبدو في تنظيم الجماعة اللبنانية على أسس رتبية من الوجاهة لا نزال نلمسها في حياة اللبنانيين وعلاقتهم بعضهم ببعض، وفي حزبياتهم وعنعناتهم، وفي غرضياتهم الظاهرة مراراً حتى في أمر اختيار الزوج - اليزبكية والجنبلاطية مثلاً. هذه الفئة الاجتماعية التي كونت القيادة الاجتماعية والسياسية لمرحلة طويلة من تاريخ لبنان لم تكن مغلقة على نفسها، بل كثيرا ما هبطت بعض عناصرها وانقرضت، أو ارتفعت إليها ودخلتها بعض الوجاهات الجديدة المؤسسة على بروز الكفاءة في قيادة القوم أو الوظيفة أو المال، فإذا بالألقاب التي بطلت رسمياً منذ العهد العثماني تعطى بداهة للذي بدر منه بعض التفوق. ولو لم يكن الانتداب، ثم الحكم الوطني، قد حاول تثبيت بعض العناصر الفاسدة بشكل اعتباطي، ورفع بالمال، أو بالوظيفة، بعض العناصر غير الصالحة، ولولا أيضاً بعض الأحوال الشاذة كالثراء السريع وغير المشروع وسواها من الظروف، لكان هذا الصعود والنزول في سلم الرتبية الاجتماعية أكثر سهولة وانفتاحاً، ولكان حصل هذا الانتقاء السليم للأفضل والأصلح بشكل تدريجي عفوي، ولكان تعادل ما نشكو منه من فقدان أو فساد أكثر القيادات السياسية والاجتماعية، والذي نعبر عنه بهذا التناقض أو المفارقة الأخرى التي نعنيها: «الشعب اللبناني أفضل عادة من قادته وحكّامه». وقد فسد أحياناً هذا الشعب بعامل فساد التوجيه وانعدام القيادة - وأساس الرقي والانجذاب إلى الحق والخير والفضيلة هو من صنع النخبة القائدة - فإذا فسد الملح فبماذا يُملّح؟!

وقد ساهمت هذه الرتبية الاجتماعية فيما مضى في المناعة والقوة والعصبية والوطنية التي عُرف بها اللبنانيون على مر التاريخ، بخاصة الجبليون منهم، وذلك لأن هذه الرتبية زادت في توحدهم وفي طاقة فعاليتهم... وللمثل لا أكثر نذكر أن أحد

العناصر التي حفظت لأخواني الدروز هو المناعة والوحدة الاجتماعية والقوة المعنوية - بالرغم من زوال سلطانهم الغابر عن لبنان الذي حكموه وسمي جبله باسمهم مدة أجيال طوال - قد يكون أحد هذه العناصر في تكوين الرابطة ومضاعفة الفعالية في هذه الرتبية الاجتماعية التي عرفوا بها ولا يزالون. وكأنه تنظيم عسكري شامل. تنظيم جيش لا نظام جماعة.... ويبرز أيضا هذا الأثر - علاوة على تأثير الدين - في الآداب الاجتماعية والعلاقات التي تتطرف إلى إقصاء الشتيمة تماماً والكلام «المكدّر» والى الحشمة البالغة حد عدم ذكر بعض أعضاء الجسد إلا بأسماء مستعارة. والى المبالغة - وقد لا تكون من المبالغة- في حسن الآداب. إلى درجة أن إحدى القرى - ولم يكن فيها جاهل بل كلهم متدينون أو محتشمون - كانت. على ما يروى لنا. تستأجر «جاهلا» من قرية أخرى لكي تستطيع أن ترد عنها تهجم بعض جهلاء القرية المجاورة....

ولا بد أخيرا لا من التلميح إلى أثر حركات الفلاحين Jacquerie في كسروان مثلاً. وامتداد روحها في أنحاء لبنان كافة. وتحولها من ثورة اجتماعية إلى نضال طائفي مؤسف. أثر هذه الحركات المحض شعبية في عهد انحطاط الإقطاعية وتحولها عن التوجيه السليم. وتفاعلها في الإقطاعية ذاتها. وما نجم عن هذا التفاعل من أنظمة جبل لبنان القديم. وإلغاء الإقطاع بمفهومه السابق.

وبجانب وبموازاة هذا الإقطاع السياسي. أو بالأحرى هذه الوجاهة الوراثية والمكتسبة التي أشرنا إليها. قام. ولا يزال قائماً. استقطاب اجتماعي آخر. نوع من مرتكز مادي لوجاهة الدين ونشاط رجاله. ونعني الأوقاف الطائفية التي لا تزال المحور المادي للحياة الدينية. يدور حوله وينطلق منه ليس فقط هذا الجمهور الغفير من الذين يعيشون في الأديرة والكنائس والمساجد والخلوات. بل أيضاً نشاطات اجتماعية وخيرية وعملية مختلفة متنوعة... وهذه الأوقاف. إن لم تتجاوز نشاطها الاجتماعي والخيري والإنساني الديني إلى بعث التعصب الطائفي أو التدخل اعتباطاً بشؤون السياسة. تلعب هي أيضا دورها في التوجيه الاجتماعي السليم وفي القيادة الروحية... وعلى قدر ما يكون رجال الدين ومؤسساتهم صالحة يكون المجتمع في تطوره وأهدافه سليماً صالحاً أيضاً.

4. الظاهرة الإنسانية

هذه الألوان المعتمدة للأوضاع والوجهات اللبنانية التي بقي أن نقول الكثير عنها لولا الإيجاز. تجعل من الشخصية اللبنانية. ومن إمكانية التعبير عنها شيئاً عظيماً بحد ذاته. أي كينونة معنوية منفتحة على النقاش الحر. وعلى النقد الصريح. وعلى تقصّي الحقيقة. وكذلك تأليفاً إنسانياً جامعاً سموحاً وعميقاً في آن واحد. في تصوّره للأشياء. وفي تفلسفه فيها. وفي تحقيقها... كأن شخصية اللبناني مفتوحة على تيارات وحضارات مشرعة النوافذ على جميع الآفاق.

وزاد هذا الاتصال عبر المهاجر وفي معرفة الآخرين - في التسامح. والأنسنة Humanisme لا تأتي إلا نتيجة للمعرفة. إذ ندرك أن حقائقنا الزمنية كلها أو أغلبها. هي في النهاية حقائق نسبية. فينتفي التعصب الأعمى لها والتغرّض الأحمق.

شعب نصفه في المهجر يعود بعضه بشكل دائم.أم مؤقت. ويتصل نصفه بنصفه مراسلة. أو بسواها من وسائل الاتصال. هو وضع بشري ديموغرافي فريد من نوعه...

لذا كان لبنان. موطن جبران وموطن ميخائيل نعيمة. على القمة التي تتلاقى فيها الحرية المطلقة من كل قيد للزمان وللمكان. بالتوق إلى الحقيقة المطلقة أيضاً. وبالحب...

ولذا قد يكون لنا أدب رفيع في أكثر اللغات الكبرى. إما تأليف أو تعريباً. هذه الظاهرة الإنسانية إذا ما تقوت يجب أن تتقوى لصالح صهر اللبنانيين كافةً. إذا لا تستطيع أية قومية أن تصهرهم- فيما عدا الظاهرة الإنسانية -هذه الأنسنة humanisme ستدفع بلبنان أن يفيد حقاً العالم العربي بوجوده. أن يلعب لبنان دوره كالإسكندرية الأفلاطونية الجديدة في العهد الهيلنستيكي. وكمدينة إنطاكية ومدينة بيروت ذاتها: دور يونان الشرق العربي.

وهذا الدور كفيل وحده بأن يخدم قضية العروبة - هذه العروبة التي تكاد تنفصل عن تراثها الحضاري الإسلامي الأصيل- وقضية الإسلام؛ علها تنمو على هذا الشاطئ الجميل - كحلم عدن القرآن أو كملكوت الله في قلوب البشر - بذور أبن رشد. وابن سينا . والبسطامي. السهروردي. وذي النون المصري. وجلال الدين الرومي. وحفيظ. والحلاج. وسواهم وسواهم الكثير من أعاجم. عرب - وكلهم في هذا المستوى عرب.

5. وحدة العيش ، وحدة الحياة المشتركة

في هذا الإطار الجغرافي الطبيعي القائم- واقع المكان - وفي هذا القالب المعنوي التاريخي الحضاري المتصل- واقع الزمان - كان لبنان. ولا يزال. بالرغم من التناقضات والمفاوضات والتعاكسات والتنوعات التي يتضمنها ويحتضنها. كان ولا يزال يشكل وحدة للعيش واحدة. وحدة للحياة مشتركة... وقد يكون في ذلك السر والسبب الذي يجعل التناقضات والمفارقات والتنوعات والاختلافات والأزمات كافة تجد في النهاية لها حلاً واقعياً منسجماً وتسوية معقولة. وتأليفاً يحافظ فيه على طرفي

النقيض وقطبي التعاكس في عملية تطور الحياة الحقيقية التي تجمع على الدوام بين التناقضات ثم تهدمها لتبني تناقضاً آخر أكثر انسجاماً، ولا تذهب أبداً من نقيض، كما يتصور ذلك الجاهلون لشرائع سير التاريخ ودفق الحياة.
فوحدة العيش، وحدة الاقتصاد ، وحدة الحياة، وحدة الاختلاط والاشتراك هي على الدوام الغالبة، المنتصرة ... لذا لم تصطبغ خلافات اللبنانيين بطابع من الخطورة إلا نادراً على مر التاريخ... فمهما اختلفوا فلا بد لهم أن يتلاقوا أو يتفقوا ... فما من أحقاد دائمة ولا عداوات دائمة، بل ربما الصداقات والمبادئ ووحدة التحسس بالمصير هي دائمة أكثر بكثير.
عندما يختلف بعض اللبنانيين أحياناً - وهم قلة - على بعد الشؤون الطائفية، فيهددون بنقض الميثاق الوطني من جديد، ينسون ، أو يتناسون، أنه من الصعب جداً على الفريق الأول منهم أن ينتقل بأملاكه وأمواله وسكنه إلى عاصمة الأمويين، ومن الصعب جداً أيضاً للفريق الآخر أن ينتقل بكل ما لديه إلى ما وراء البحر المتوسط ... ولو افترضنا المستحيل واستطاع بعضهم قطع وشائج القربى والجوار والبيئة وفصم العلاقات الاقتصادية والمادية التي تربطه بهذا البلد اللبناني، وانتقل إلى البلاد العربية المجاورة، وإلى سوريا مثلاً، أو إلى بعض دول أوروبا الغربية كفرنسا مثلاً، فأي ضرر يستطيع أن يلحقه بلبنان وبكيان لبنان واستقلاله؟!!
وإننا نلاحظ في الواقع أن كيان اللبناني، رغم العواصف التي تمر به، يتأكد ويثبت في ازدياد مضطرد، وعلى الدوام، في بصيرة جميع اللبنانيين. وقد يدركون يوماً أكثر مما يدركوه الآن أنهم أوّلاً أبناء هذه الوحدة الحياتية، وحدة الاقتصاد والاجتماع وتشابك البيئة، قبل أن يكونوا نصارى وسنّة ودروز وشيعة وسواها من المذاهب. ويأتي الذين فيما بعد وفق هذا الاشتراك وهذا التشابك في وحدة الحياة... فإذا اختلف الناس أحياناً على أهداف الآخرة، فلا يستطيعون في النهاية إلاّ أن يتفقوا، لأن وحدة العيش التي تجمعهم، والتي لا تميز بين تاجر نصراني ومستهلك مسلم، هي أقوى بكثير من أن تقبل بهذا التفريق. وقد يبزغ يوم يترك اللبنانيون فيه للآخرة خلافاتها واختلافاتها ويجتمعون على ما اتفقوا عليه من شؤون هذا الوطن الذي أنشأه لهم وحققه واقع الزمان والمكان، قبل أن ارتضوه هم لهم خيمة أرضية يفيئون إليها في هذه الحياة الفانية القصيرة.

مرتجى لبنان

ما نرتجيه من لبنان

في الواقع لا نرتجي من لبنان أكثر بكثير مما هو عليه لأنه ، على قدر ما يكون من الحمق أن لا نرضى بشيء، فمن السخافة أيضاً أن نتصور أن باستطاعتنا قولبة الجماعات وضغط التاريخ وحصره وتحويله، وتبديل الأوضاع على غير ما هي عليه ... هذه قد تكون مهمة انقلاب شامل، في التقنية، وفي الذهنية، وفي الحضارة، من صنع التاريخ أكثر مما هي من صنعنا - وهل يتبدل الإنسان كثيراً في جوهره؟ أو تتطور كثيراً وتتغير أوضاع التاريخ؟! قد نساهم في تطوير بعد الأوضاع وإبراز بعض المفاهيم والمؤسسات، ولكن أين سهمنا من مساهمة التاريخ والأوضاع ذاتها في قولبة وتطور نفسها؟!
وتجدر الإشارة في هذا الباب إلى أننا قد نكون بدأنا مرحلة جديدة من التطور الاقتصادي والاجتماعي العالمي يتميز باحتضار عهد الايديولوجيات والعقائد السياسية في جميع أنحاء العالم، وبخاصة المتقدمة منه صناعياً وحضارياً - وهذا هو السبب الحقيقي لأزمة العالم الشيوعي القائمة... وقد يزول مع تعلقنا بالمذاهب السياسية والاجتماعية شيء من الأمل، ذاك الأمل الساذج؛ الذي يعلق بأذهاننا فيجعلنا نتصور إمكانياتنا الانقلابية أو التبديلية والتطويرية على غير ما هي عليه في حقيقتها وواقعها ... أو الخيالية، أو الذهنية السياسية السحرية - الطوباوية القائمة على تنوعها (الفاشية، والشيوعية، والقومية، وبعض مفاهيم واتجاهات الاشتراكية ذاتها) - وذلك أمام ظهور وبروز وسيطرة فلسفة العلم والواقع، على أن نحذر من أن نبتلي من جديد بطوباوية سحر العلم والصناعية industrialisme ومظاهر الحضارة المادية... ولكن قد ينمو أمل جديد ايجابي سليم هو دفعة الحياة ذاتها لمواجهة بساطة الحياة وتعقّد تحقيقها.
ونحن هنا في لبنان نشعر أحياناً بكل هذا قبل بعض جيراننا، ولذا يبدو منا ربما بعض الفتور إزاء بعض المواجهات المشكلات التي تخصّ كيان الشرق العربي أو تندفع إليها - في فوران الهوس الجاهل- بعض الحكومات والشعوب العربية.
على أننا فيما نرتجيه للبنان، سنضع التأكيد على بعض الاتجاهات والأهداف الأخيرة الأساسية، لتوضيح ما نقصده وما نراقب:

١. لبنان بلد العقلانية

لبنان في واقعه مجهز لكي يلعب دور العقلانية السليمة في الشرق الأوسط، المجردة عن شتى تيارات الجهالة والهوس البدائي الذي يرافق غالباً تطوّر الجماعات المتأخرة لأنه لولا العقلانية لما قام هذا الوطن ونما وتطور، لما كان هذا الكومنولث، هذا الإتحاد الفيدرالي الغريب، لتنوع أغرب من الأقاليم والعائلات الروحية، والقرى والمدن، وللملتقى الحضارات القديمة والحديثة وسواها من وجوه التنوع.

وقد يكون لبنان في هذا الاتجاه - بالرغم من الأزمات الطائفية السطحية التي قد يسببها أكثر الأحيان سوء الإدارة في لبنان، في هذا الاتجاه الاتحادي المتفهم الرحب، مثلاً لسواه من شقيقاته وجاراته الدول العربية - ومن ضمنها سوريا - كي تتمكن من أن تحل مشاكلها القومية والداخلية على مثل هذا الأساس، وبمثل هذا النهج المتقبل الفاهم لكل تنوع داخلي - فجميع هذه الدول تستطيع أن تتوجه إلى الروح الفدرالية التي تؤمن الاستقرار الداخلي وترضي الأقليات المذهبية والأثنية، وتؤلف وتربط بين تنوع أقسام الوطن - هذه الأقليات المذهبية والأثنية التي يجب أن تحصل عل الضمانات الكيانية والبقائية البدائية الأولى، وإلا واجهت الدولة مشاكل وأزمات لا تعد ولا تحصى ليس أقلها ضعف كيان الوطن وعدم الاستقرار الدائم، والإمكانية التي تتمتع بها كل أقلية مذهبية أو أثنية في أن تراجع الأمم المتحدة بشأن كيانها ومصيرها استناداً إلى الحق الطبيعي، والحق الدولي وشرعة حقوق الإنسان.

لبنان وجد لكي يكون بلد العقل، بلد العقلانية- أثينا هذه البقعة من الشرق. ولنترك لسوانا أن يتلهى أو يجازف بلعب دور إسبارطة Sparte فهو ليس دورنا في الواقع. إن نفوسنا تعبت عبر التاريخ - من تشخيص أدوار الأباطرة أو من تقليد دون كيشوت Don Quichotte.

وللبنان أيضاً دور يحب، ويجب أن يلعبه في حوض البحر المتوسط كدولة متوسطية تستطيع الكثير في تطوير العلاقات الاقتصادية والسياسية والحضارية.... وعلى الأقل تستطيع أن تكون واسطة نقل للحضارة كما كان سهمه ودوره في العهد القديم... فمن يبادل السلع والمنتوجات يبادل أيضاً في الوقت ذاته الأفكار والقيم... وليترك في هذا المجال للبنان أن يختار أن يتجنب التفكير الإمبراطوري الذي يراود خيال وشعور بعض الجماعات والفئات والأحزاب العربية - على غير واقعها وعلى عكسه في الحقيقة، وقد إنقضى عصر الإمبراطوريات - وجميع الإمبراطوريات الأوروبية والروسية وسواها تنهار... وقد تدرك عما قريب هذه الفئات ذاتها ترهة ووهم هذا القصد والخيال الذي تخلقه ليدفعها... فلبنان لا يهتم كثيراً بالمجد السياسي على قدر ما يهتم، ويجب أن يهتم، بالاستقرار الوطني والرقي الاجتماعي والتقدم الحضاري، والمساهمة في الحياة الدولية والعيش الإنساني.

2. لبنان والحضارة العربية

والذي نرجّيه، أن يظل لبنان يهتم بالقضية العربية وبتطورها وانبعاث مقوماتها الحقيقية، وأن يستمر مفكرو لبنان وأدباؤه والقادة السياسيون فيه وسواهم من طليعة النخبة، يساهمون، مع بعض كبار رجال الفكر والسياسة في العالم العربي، في الزعامة العقلية للقضية العربية - هذا الدور التاريخي الذي لعبه لبنان منذ جيل ونصف، والذي تؤهله له الذهنية العقلانية التي ترى الأمور كما هي، وكما يجب أن تكون في امتداد واقعها،لا كما يحلم بها بعض الحالمين من خلال مركّب النقص أو صنوه، ومقابله مركّب العظمة فيهم، أو بعض الذين يعالجون الأمور بذهنية «عدد واحد يضاف إلى واحد فيصبح المجموع عشرة» لا بذهنية «واحد يضاف إليه واحد أخر فيصبح المجموع اثنين».

وللمثل لا أكثر نلمح إلى مساهمة لبنان الأساسية والأولية في تكوين الجامعة العربية ... ولا نستغرب أن تكون فكرة «جامعة الدول» من وحي واقتراح ممثلي لبنان بشكل خاص، لأنهم أدركوا فورا، كما يدرك كل لبناني واعٍ للقضية العربية، أن فكرة «جامعة الدول» هي، في الطور الحالي من تبلور القضية العربية ونضجها النسبي، القالب الحقوقي المؤسسي الوحيد الذي يمكن تحقيقه كأداة للتعاون بين جميع الدول العربية ، والذي ترضى به هذه الدول المستقلة تماماً إحداها عن الأخرى ، وذلك على غرار الجامعة الأميركية لتعاون دول الأمريكتين، وعلى غرار رابطة الكومنولث البريطاني، كما أنهم أدركوا أيضاً أن مبدأ الإجماع لا الأكثرية هو الذي يجدر اعتماده... وقد صفق «الاتحاديون» لتحقيق هذه المؤسسة، ولكن ذلك كان في الواقع انتصاراً للعقل اللبناني في تفهمه لواقع الأوضاع ولما يمكن أن ينجم عنها وينبثق منها من مؤسسات.

وفي كل مرحلة من مراحل نمو القضية العربية - إذا قدر لها أن تنمو ككل تجمع أو تكتّل إقليمي سيسبق، ربما في العالم، التكتل العالمي والإتحاد العالمي المنشود والمقصود من خلال سعي حركة التطوّر والتكوّر الإنساني الشامل - في كل مرحلة من مراحل نمو القضية العربية ، سيكون اللبنانيون في طليعة الذين يدركون واقع ما تتطلبه كل مرحلة من مؤسسات تكتلية جديدة ... فلبنان ليس عقبة في طريق تطور القضيّة العربية السياسية، كما يدعي بعض إخواننا المنتمين إلى بعض الدول العربية، وكما سمعت ذلك بنفسي مراراً، بل قد يكون لبنان العنصر الأساسي الضروري لتطور الفكرة في الاتجاه الإنساني والحضاري والديمقراطي الرحب الذي يجب أن تسلكه، وقد تكون الدول العربية التي ينتمي إليها هؤلاء الأدعياء هي العقبة والمانع لكل تكتل عربي دولي جديد... إذ العقبة والمانع هو نقص،أو انعدام، النضج السياسي، وهو نقص، أو انعدام، النضج الحضاري، وهو أيضاً نقص، أو انعدام، الروح الديمقراطية الصحيحة؛ وهو هذه الانعزالية في التفكير ، الانعزالية في الاقتصاد، الانعزالية في الوطنية الضيقة إنسانياً وعربياً ، حتى في معاملة بعض الدول العربية لبعض... وقد تكون هذه الشعوب بحاجة إلى أن تتلقح تماماً بالعقلانية التي فعلت في الذهنية اللبنانية، فحررتها إلى حد بعيد من جمود وقيود ورواسب القرون المظلمة... وللبنان دور في تحرير الذهنية العربية في هذا الجمود، وهذه القيود، وهذه الرواسب... لأنه كما أخذ وأعطى فلا

بد له أن يعطي بدوره... وهذا هو السر الذي لا يزال يجعل من لبنان، بالرغم من صغر حجمه، الحكم والفاصل في أكثر القضايا العربية - عندما يتوفر له طبعاً الحاكم القادر الفاهم.
وكان لا بد، لجميع ما سبق، أن يتوجه اهتمام لبنان أكثر فأكثر إلى الناحية الحضارية من القضية أكثر من عنايته بالناحية السياسية ... وعلى إخواننا من البلدان الشقيقة أن يدركوا ذلك.
أما الوجه السياسي ذاته للقضية فهو على شقّين في نظر اللبنانيين: فإذا كانت العروبة تعني هذه النزعة الطبيعية للدفاع عن حقوق السيادة المشروعة وردّ الاعتداءات، والاشتراك في تحرير ما تبقى من الأقطار العربية، خاضعاً للحماية أو الاستعمار الأجنبي - أي هذه الرابطة العربية أو الغربية بمعناها الواقعي الصحيح - فإن لبنان لا يستطيع إلاّ أن يساهم، في النضال المشترك وأن يطلب التعاون الذي يتوافق مع تطور الشعوب العربية ... على أننا نرى بعين الواقع أنه يصعب على اللبنانيين أن يقبلوا بالعروبة بمعناها التوحيدي السياسي Panarabisme ، على الأقل في هذه المرحلة من تاريخ بلادهم، لما في ذلك من تناقض مع واقع الأوضاع الجغرافية العربية ذاتها، ومن بعض المقومات التي انبثق منها لبنان الحديث، ومن تهديم لفكرة الاتحاد الوطني والميثاق الوطني الذي يتمسك به اللبنانيون كافة.
ويتساءل اللبنانيون بحق: لماذا لا تبدأ بعض الشقيقات بالانضمام إحداها للأخرى مثلاً قبل أن تواجه فئات مهووسة لبنان بهذا الشوق الغريب، وهذا الاندفاع الرامي إلى دمج الوطن اللبناني في نطاق وقالب إتحاد فيدرالي عربي واسع شامل لم يتكوّن بعد، ولا يبدو أمل واحد بأنه سيتكون عما قريب، في زحمة هذه التناقضات والمشاكسات، والخلافات والتناحرات التي تقوم اليوم على أشدّها بين أكثر الدول العربية، ووسط هذا التزاحم المؤسف على شقّ الصف العربي بغية الفوز بزعامة التوجيه الأولى؟! وتكاد الدول العربية، من جراء هذه الخصومات والتناقضات والخلافات، لا تستطيع أن تتعايش سلمياً كما تفعل على الأقل اليوم بعض الدول الكبرى المتخاصمة.
ونظن مخلصين أن أزمة لبنان اليوم مع بعض الدول العربية ناجمة عن هذه السياسة الخاطئة التي هدفت إلى هدم الجامعة العربية معنوياً وعملياً، وإلى استثارة التناقض بين مصر والعراق، وسوريا والعراق، ولبنان وسوريا، والسودان ومصر، والمغرب العربي ومصر إلخ ... والاستمرار في إذكاء شتى المشاحنات التي هدمت فعلاً الوحدة المعنوية والواقعية للشعوب العربية، وجعلت اجتماعات الجامعة غير ممكنة على صعيد رؤساء الوزراء، وإن حصلت على غير صعيد، فبدون أي جدوى ... كما أن سياسة التدخل في شؤون الدول العربية الأخرى الداخلية - هذا المسلك المنفي لمبدأ التعايش السلمي ذاته - قد أدت إلى انهيار الثقة بين مجموعة هذه الدول وتقلّص روح التعاون، كما ساهمت أيضاً في تقويض الجامعة العربية وأسس التعاون العربي: هذه السياسة الغريبة الرامية إلى التسابق والتزاحم على تكثير الدول العربية ، التابعة، الدائرة في فلك هذا القطب العربي أو ذاك...
ولبنان لا يستطيع أن يتعاون سياسياً مع الدول العربية إلاّ على أساس ميثاق الجامعة العربية الضامن للوضع الراهن في الشرق العربي، والمكرّس الكافل لكيان لبنان واستقلاله.
ولا يستطيع لبنان أيضاً أن يكون دولة تابعة لأحد، بل ينشد التعاون، في المساواة التامة مع جميع فرقاء العقد العربي؛ وهو المبدأ الذي قامت على أساسه الجامعة لا مسلك التابعية.
واخيراً يرفض لبنان كل الرفض سياسة التدخل في شؤون الغير الداخلية، ولا يستطيع أن يقبل بها خوف أن يرتد عليه هذا القبول بالتدخل بأسوأ العواقب... هذا طبعاً باستثناء القضايا التي يتوجب فيها الإرشاد والنصح والتوجيه لأنها تتعلق بجوهر مفهوم الإنسان وحريته.
ويجب أن لا نتصور جامعة الدول العربية غير ما هي على حقيقتها - أي أنها مجلس لكومنولث عربي، رابطة دول عربية؛ ويجدر أن لا نطلب منها أن تقوم بغير ما تستطيع أن تقوم به من مهام. يكفي أنها - عندما كانت قائمة - حققت دورها في تخفيف حدة التوتر وأضعفت التناقضات القائمة بين الدول العربية، وساهمت في إحلال الانسجام السياسي والمعنوي بين هذه الدول، ومهدت للتعاون في أكثر من حقل، وكانت أداة دبلوماسية ذات شأن وفاعلية في الأمم المتحدة وخارجها.
ففي العودة إلى نظام الجامعة، وفي القبول به كما هو على نقائصه الطبيعية الناجمة عما تكتنفه أوضاع الشعوب العربية من تنوع وتناقض، في العودة إلى ميثاق الجامعة وتنفيذه نصاً وروحاً، ضمان لاستمرار بقاء الرابطة العربية المعنوية والسياسية ونموها . وإذا ما تهدمت الجامعة العربية، فإن التناقض السياسي والاقتصادي والتنافس والتزاحم بين الدول العربية سيبلغ أشده، وستبرز ربما من جديد تناقضات تنمو وتدوم كنا قد ظننا أن التاريخ قد طواها، وليس أقلّها شأناً: تناقض محور القاهرة ومحور بغداد - ممفيس الفراعنة وبابل كلديا وآشور. هذا التناقض المحوري الناتج عن التزاحم لأجل زعامة العالم العربي السياسية، سيوقظ حتماً في طفرة نموه وتطوره أكثر التناقضات الإقليمية والسياسية الأخرى، وسيدفع بالشعوب المعنية في لولب تيار انفلاتي انفراجي Centrifuge لا تجمّعيّ ولا توحيديّ على الإطلاق. هذا الذي نراه بعين البصيرة المجردة، والواقع، إذا ما ارتفعنا قليلاً فوق مستوى تراشق الإذاعات وتخاطب الصحف والبلاغات الرسمية وغير الرسمية، لا كما يتصورها خيال مريض بالسلبية الدائمة، وما هذه التهاليل بالانتصارات الموهومة «وفوز القومية العربية» - ولا ندري ماذا يعني القائلون بها في هذا

المفهوم - «واشتداد قوة الوعي العربي»، «وانتصار الوحدة العربية» وسواها من عناوين المشاحنات، ليس كل هذا سوى دعاية جهورية رسمية وغير رسمية يقصد منها تغطية كارثة الواقع العربي كما يبدو لنا حالياً في حركة توزعه وانشطاره وانفلاته .

٣- لبنان بلد التقدم والمبادرة الحرة

والذي نرجّيه أن يكون لبنان بلد التقدم على أنا يبقى دائماً بلد المبادرة الحرة والحياة الحرة، لأن ما من شيء يضطرنا ويحوجنا أن نطبق في بلادنا مبادئ «مجتمع العبيد»، فوظيفة لبنان في الشرق العربي أن يكون كذلك: وطن التقدم والحرية... فإذا تأخر عن الركب فقد يفقد أحد عناصر كيانه. وليس هو التقدم الهادم لما قبل الذي نعني، بل التقدّم الحافظ والدافع والمفتّح لإمكانيات ما قبله، إذ ماذا يفيدنا أن نخسر كل ما نحن عليه مقابل كسب بعض العادات والصفات السطحية التي هي ليست منا ولنا، نلتقطها من هنا وهناك، كمن يحاول أن يلبس ثياب غيره أو يتلبس بشخصية سواه ... فليست الحياة أبداً طفرة، ولا التقدم طفرة أو انطلاقا من عدم... بل علينا أن نعود دائماً إلى الواقع اللبناني والى واقع ما نحن عليه من أوضاع حضارية وتقاليد اجتماعية وأخلاقية، وأن ننطلق من هذا المرتكز لنشذب أنفسنا وأوضاعنا ذاتها ولنبني ونقتبس ... لا يفيدنا شيء. وقد يكون من مظاهر التأخر والانحطاط في شخصيتنا ومجتمعنا أن نحاول أن ننسى مشية الحجل لنتعلم مشية الغراب. فهل عكفنا فعلاً على درس هذا الواقع اللبناني، والواقع العربي أيضاً، وواقع الحضارة العربية ذاتها، وذهبنا، بعد المناقشة والتمييز والمقارنة والفهم الصحيح لكل ما هو نحن وما هو سوانا، إلى ما يجب أن نتوجه إليه ونأخذه، أو الذي يجب أن نحافظ عليه ونبقيه أو نبعثه ونحييه من جديد؟! هكذا فعلت البلدان ذات الحضارات القديمة الألفية، كاليابان والهند وحتى الصين - بعد أن تنقشع موجة التفكير الماركسي تماماً عنها - وهكذا يجب نحن أن نعمل. ماذا يفيدنا أن نربح العالم وأن نخسر أنفسنا؟ ألم نر، ويا للأسف، محاولات الإصلاح الهادم لكل ما سبقه، كيف أنها تحولت إلى اختبارات «بربرية» وعنيفة جعلت الإنسان حيواناً فأراً تجري عليه شتى التجارب التي ذهب ضحيتها الملايين من المواطنين، والتي أودت بالعديد من الشعوب إلى فقدان الحرية والاستقلال، والى التأخر المعنوي والمادي؟ ... كأن التقدم هو بالنسبة للولد في قتل أبيه وأمه !
والاشتراكية التقدمية - إذا أرادت ن تكون بنّاءة فعلاً وإيجابية حقاً - فإنما عليها أن تنحني على الدوام على الواقع اللبناني، وعلى الواقع العربي، وعلى الأسس الحقيقية للحضارة الغربية - ثم تنطلق لتشيّد المؤسسات الاجتماعية والأنظمة التقدمية المتوافقة مع هذه المرحلة من التطور البشري. فالحياة تسخر من الذي يحاول أن يقطع شجرة مثمرة كبيرة ومسنّة ليغرس مكانها نصبة صغيرة تعوزها عشرات السنين لكي تعطي ما كنت تعطيه الشجرة الأولى، عوض أن تسعى إلى تشذيب هذه الشجرة وإصلاح أرضها والعناية بها، هذا طبعاً إلاّ إذا كانت الشجرة القديمة لم تعد تصلح إلا وقودا للنار...
وإننا سنوجز بعض ما يتطلبه لبنان من أنظمة ومؤسسات تقدمية سبق لنا مرارا وأوضحناها وطالبنا بها، وليس هذا المجال إلا لنذكر بعضها:
- لبنان هو بحاجة إلى تصميم في الإعمار وإلى مؤسسة حكومية وإدارية مستقلة لهذا التصميم، ولهذا العمر، مماثلة للمؤسسة العراقية التي أنشئت لهذه الغاية والتي مكنت، وستمكن، السلطات العراقية من أن تصرف على التعمير والري والإسكان خمسمائة مليون دينار في مشروع الست سنوات القادمة، أي ما يقرب من ضعفي ما يحتاجه السد العالي من مال لإنشائه. وقد بدت بعض بوادر هذا التصميم الإعماري في لبنان في خلق مصلحة الليطاني والكهرباء، ولكن لا يزال جزء كبير من واردات الميزانية العامة وميزانيات البلديات يصرف على أساس أهواء ورغبات النواب والحكام والمتنفذين، ووفق مصالحهم الانتخابية والاقتصادية، ولا تزال مدننا الكبرى ذاتها - وهو أمر مخجل - بدون تصميم حقيقي وبدون رغبة من المسؤولين في تنفيذ مثل هذا التصميم.
- نحن بحاجة إلى تنظيم ولا مركزية واسعة في الإدارة العامة ومراقبة وتفتيش شديدين في آن واحد. ويجدر تبسيط المعاملات وإلغاء الكثير منها، واعتماد بعض الآلات الإلكترونية الحديثة للسير في مجال التبسيط الى أقصى حد ممكن، مما يفسح المجال لتخفيف الجهاز الإداري إلى نصفه تقريباً، وتحويل ما يفيض عن المصاريف الثابتة العامة إلى مشاريع الإنشاء والضمان الاجتماعي وسواها. ونحن بحاجة إلى تعيين الأكفاء، إلى أية طائفة انتسبوا، في الإدارة، واختيار صفّ من المديرين المقتدرين ومن الشخصيات التي عرفت بالعلم والتنظيم والإدارة. ويجب أن يكون بين هؤلاء بعض الذين نجحوا بتفوق في أعمالهم الخاصة.
- نحن بحاجة إلى تعديل أساسي لبعض قوانيننا ومؤسساتنا كي لا تظل غريبة عن تراثنا الاجتماعي والسياسي. ويتوجب علينا أن نحيي من جديد وان نبعث وننمي هذا التراث الذي يكوّن في الواقع أحد عناصر شخصيتنا اللبنانية المتميزة.
فالأنظمة اللامركزية مثلاً وحرية المبادرة الشخصية والتعاون في العمل، الذي يجب أن نكرسه بنظام للعمل الاجتماعي في سن معينة ولمدة معينة، وسواها من الميزات القديمة، هي جزء من تراثنا العام، وأيضا روح الحشمة والأدب ومعنى الشرف، وهذه العادات والتقاليد في حسن التعامل مع الناس وفي الصدق في الوعود والمعاملات، وفي احترام الغير والمروءة، وصفات الفروسية الحقيقية.

- نحن بحاجة إلى تحقيق ضمانات اجتماعية واسعة وشاملة لا تثقل، في أية حال ، كاهل العامل ولا كاهل رب العمل، وتتلاءم مع أوضاع البلد ذاته، ولا تشكل استرسالاً في الاطمئنان، واستكانة إلى حماية الغير وعنايته، مما يولف خطراً جديداً على حياة المواطن، كما كان انعدام الضمانات وشدة القلق على المصير يشكل عقبة وحدّا ومؤخرّا لتطور الفرد وانطلاق نشاطاته. فشيء من القلق أو عدم الاحتراز الكامل هو أمر ضروري لدفع الإنسان ولاستثارته للتحدي، وللعمل، وللابتكار، وللإنتاج ، ولكي يستطيع فعلاً أن يتحسس بلذة العيش والعمل الناجمة عن هذا التحدي والاستثارة للمجهول. والضمان الصحي ومشاريع الإسكان الشعبي قد تكون في هذه المرحلة هي التي يجب تحقيقها، كما أنه تتوجب النصفة والعدل، أي الإنصاف في الأرباح والامتيازات المادية والمعنوية بين رب العمل والعامل، فيحل من جراء ذلك الانسجام والتعاون والاشتراك الطبيعي في الإنتاج والخلق، وتتضامن وتتوحد وتتركز الخلية الإنتاجية ، إذا يضمحل ويزول ما أتمته الماركسية من ذهنية طبقية - على ضعف هذه الذهنية في لبنان - وهذا الكبت النفساني أو المركب الأخلاقي المعقد، الذي ورثناه من الأجيال المظلمة، فيفيد العامل ورب العمل ذاته من هذا الالتقاء ، ومن هذا الانسجام، على المستوى الطبيعي الإنساني، وفي الروحية الإنسانية البديهية، التي يتعرى فيها حقاً كل مواطن من أسمال التفرقة والتمييز الاجتماعية، ويغطس ويتلاشى، ليجد نفسه في الأخوة والمساواة البشرية الحقيقية.
- نحن بحاجة إلى تنشيط زراعي وصناعي وحرفي متوازن يضمن بقاء واستمرار الوحدة الاجتماعية والاقتصادية الصغيرة، العائلة، والقرية، والحي. وقد تكون اللامركزية في الصناعة وتوزيع المصانع على الأرياف إحدى الوسائل التي توقف تيار الهجرة الريفية وترفع من مستوى الأقاليم الاقتصادي.
- نحن بحاجة إلى أن نعيد المواطن إلى النطاق والجو الطبيعي لحياة الإنسان ... فنشدد على بقاء البيئة اللبنانية القديمة المشبعة بروح العائلة والدين، والاتصال المباشر بالصخور والأودية والجداول والأشجار والهواء الطلق والنور. وقد قدر لنا حظ فريد من العناية أن نقيم ونعيش على شواطئ هي من أجمل وأروع بقاع الدنيا، وكأنها امتداد لبلاد خيال هوميروس وأوليس، فلماذا تتكدس مثلاً مساكننا ومكاتبنا ومحترفاتنا، وتتراكم بعضها فوق بعض، كأنها أكوام من العلب أو خلايا من القفران؟! إن الحضارة في اتجاهاتها الأخيرة تعود إلى ما كنا عليه نحن، وما زال عليه فريق منا، من مأكل ومشرب سليم، ومن عيش سليم، وبيئة هادئة وممتعة، وقناعة وراحة نفس وانفراج أعصاب وانفتاح على موسيقى الطبيعة الكونية التي ربما نحن منها اللحن الخالد... فهل نترك ما كنا عليه، والذي لا يزال فريق منا عليه، لنأخذ أو نتبنى ما يجب أن نتركه يوماً لنعود إلى حيث نحن ولكن بعد فقدان صحتنا وصحة أولادنا وانهدام الأعصاب واضطراب الأفكار وقلق الشعور؟ أول واجب على السلطة سيكون في المقبل من الأيام أن تهيّئ للفرد وتحفظ له البيئة الطبيعية التي لا تدخل إلى أعصابه الإرهاق، والى نفسه القلق ، ولا تهدم صحته وقواه، ولا تجعل الجنس البشري ذاته يتأخر ويصبح الانحطاط.
هذا هو - مع التهيئة المعنوية - واجب الدولة الأولي، وكل ما سوى ذلك من واجبات يأتي في المرتبة الثانية، يتبع؛ إذ كل ما يتبقى يتوقف على نشاط الفرد، ومبادرة الفرد، وحيوية الفرد. وأفضل الأحكام هي التي تتدخل أقل ما يمكن في شؤون المواطن، فيما عدا هذا التوجيه العام العالي جدا، الأبوي، بطبيعة حذره وتفهمه واحترامه لنشاط الفرد وحقوق المواطن، ولغاية تطور الإنسان وتحقق أهداف العيش الأخيرة.
- نحن بحاجة إلى تطهير هذا الجو الفاسد والمفسد في آن واحد - كوعاء الجراثيم الحية - للأخلاق العامة والخاصة، والذي طغى على أولادنا وعلى شبابنا ورجالنا ونسائنا وكبارنا، حتى أضحت دور السينما والمقاهي والإعلانات، وبعض الكتب والمنشورات والصحف والأغاني والموسيقى، دافعا للفوضى الفكرية والمادية وللاستهتار والرذيلة والجريمة... وللمثل لا أكثر ، كيف يمكن أن تقوم ديمقراطية صحيحة وسليمة في لبنان وأكثر الصحف تعمل في التحّيز الأعمى ونشر الشائعات والأكاذيب والقصص والصور والإعلانات المهيجة، عوض عرض الحقائق والتوجيه نحو الرجولة وإلى واجبات المواطن ؟!
- نحن بحاجة إلى إصلاح أساسي في المدرسة يلغي - ربما أكثر - هذا البرنامج القائم ويجعل من التعليم تثقيفاً للعقل وللروح وللشخصية، لا تكديساً للمعلومات؛ فلا يعود يستطيع أحد أن ينجح في الامتحانات المدرسية والجامعية وسواها، بسبب توفر معلوماته العلمية فقط، بل لما عليه من تفوّق أيضاً في أخلاقه وروحه وشخصيته؛ فيكون لطريقة محاكمة العقل وتمنطقه، ولصفات الخلق، ولميزات الشخصية ونضجها، علامات، على قدر ما يكون للتثقيف الفكري المحض علامات. فنحن بحاجة إلى الشخصية والأخلاق ربما أكثر مما نحن بحاجة إلى العلم... كما أن هذا الإصلاح في المدرسة يجب أن يرمي إلى الجمع المستمر بين العمل المادي - الزراعي والحرفي - وبين التعلم الفكري، فتخلص شعوبنا من مركّب أرستقراطية الفكر - الذي هو أدهى خطراً على الفرد والمجتمع من أية إقطاعية أخرى للأرض وللنسب قد تبررها الخدمة العامة وأوضاع الجماعة في مرحلة معينة من مراحل تطور المجتمع والاقتصاد ، بينما ليس لطبقية المفكرين أي مبرر للتفرقة والتمييز. وتخلص أيضاً الفئات العاملة من مركّب الكبت والغيرة المريضة، وهذا الاشتهاء لملك الغير وماله وحاله، ومن هذا الشعور الطبقي الذي ليس هو من جوهر طبيعية الإنسان.
- نحن بحاجة إلى أشياء عديدة أخرى يضيق بها مجال هذا البحث، وقد تناولناها في مناسبات معروفة أخرى. يكفي أن نقول على وجه التوجيه والإجمال : إننا بحاجة إلى تنظيم الكثير من شؤوننا العامة وإلى إحلال روح النصفة والعدل، وإلى إشراف وتدخل موجّه من الدولة على بعض الشؤون.

ولكن حذار من أن يصبح التنظيم في حياتنا العامة والخاصة قاعدة، والنظام معتقداً لا يقف عند حد معين، وضمن نطاق من التأثير معين لا يتجاوزه في استثارة المبادرة الحرة وفي احترام كينونتها وحيوية فورانها. فأفضل الأنظمة قد يكون النظام الذي تصنعه الأشياء لنفسها.
وحذار من أن يكون تدخل الدولة واشرافها غير الذي يسدّ نقصاً ملحّاً أو يستثير ،أو يشجّع نشاطاً سليماً، أو يوحي بتوجيه عام سليم. فأفضل الأحكام والحكام هم الذين لا يحتاجهم الناس ليحكموهم ... يراقبون الأمور ويشرفون عليها ولا يديرونها... وحذار - النصفة والعدل - من أن يعارضا روح المحبة.

٤. لبنان بلد التسامح الديني

والذي نرجّيه أيضاً وأيضا أن يكون لبنان بلد التسامح الديني الحقيقي لا بلد التعايش الديني، أي بلد التعصّب والحقد الديني الدفين المكبوت، كما يبدو ذلك أحياناً للأسف.
وليس أكره في الواقع، واقل إنسانية، من فكرة التعايش ذاتها، أكان ذلك في الحقل الدولي أم في الحقل الداخلي. وفكرة التعايش السلمي هل تعني شيئاً سوى الفكرة بان نتحمّل أن يعيش في جوارنا فلان على علاّته وعلى مساوئ تفكيره وتصرفه، لأن الخصام قد يؤدي إلى الإيذاء المشترك أو إلى الدمار الشامل ؟! بينما الذي نريده هو القبول بفلان بانفتاح ومحبة، والقبول بعقيدته وتفكيره وتصرفه أيضاً بمحبة وتفهم كامل؛ أي أن نرضى بان يكون لفلان حقيقة يستطيع أن يدافع عنها، وان يقتنع كل منا أن الحقيقة المطلقة، أي الله لا يدركها احدنا على تمامها، بل يرى كل منا وجهاً من وجوهها، وكل صورة للمطلق نتصورها تتمّم وتكمل الصورة التي يتخيلها غيرنا للمطلق ذاته ... أما المطلق ، فيتعدى جميع هذه الصور المنعكسة في ضمير وفكر الذين يتطلعون إليه، كما تتعدى الشمس الحقيقة الأشكال المعكوسة لها في البلّور والماء وبصر الإنسان ورؤية الحيوان.
"الأنهار والسواقي تنحدر في اتجاهها نحو البحر الفسيح وتضيع فيه فاقدة الاسم والشكل، فلا يقال عنها إذ ذاك إلاّ أنها البحر، ولا شي سوى ذلك. وهكذا المعتقدات المختلفة والأديان ليست إلى مسالك متنوعة تضيع وتفنى في انغمارها، وفي غطسها في بحر الذات".
حبذا يوم ندرك فيه نسبية كل حقيقة موضوعية بالنسبة للمطلق الأخر المعبّر عنه، فنتصافى جميعنا ونتحابّ ونتعانق روحياً في حرارة الإيمان، ويتمكن أحدنا فعلاً أن يصلي بنفس الروح والحب والورع والسماح في مسجد المسلم أو كنيسة النصارى، أو كنيس اليهود، أو في خلوة الناسك الدرزي على السواء.
وللختام، وللتدليل على أن الشعب ، كل شعب، يذهب بداهة إلى مثل هذا الذي ذهبنا إليه، أذكر للحاضرين بعض الحوادث من صميم روح هذا البلد، علها تذكرنا بأن الدين، كل دين، ليس له حدود بشرية.
أولها تتعلق بأحد كبار مقدّمي آل مزهر الورعين الذي كان فعلاً يطبق على نفسه الآية الإنجيلية: "عندما تصوم فلا تخرج على الناس شاحب اللون، وعندما تقف أمام مذبح الهيكل لتصلي فلا تضرب في النفير لكي يراك الناس إلخ ..."
وكان على ما يروى قديساً زاهداً، متصوفاً بكل معنى الكلمة، يحترمه الجميع في بلدة حمانا - المسيحيون والدروز على السواء. وكان من أطرف وأبلغ ما حصل أنه لما مات - وكان درزيا من أرباب دين التوحيد - لم يتورّع موارنة حمانا عن ذكر اسمه في كنائسهم مقرونا بتراتيلهم وطقوسهم: "طشبحتو المقدم أبو حسين - طشبحتو ...".
يقابل هذه القصة ما جرى، ويجري على الدوام، بالقرب من بلدتي المختارة، في الباروك مثلاً، وفي المقام لوليّ درزي الشيخ عز الدين ، إذ يزوره نصارى الباروك والفريديس للتبرّك وللنذر، وكذلك النذور التي يقوم بتأديتها عدد من المسلمين والدروز والنصارى في الشوف، وغير الشوف من المناطق، لأولياء طائفة ليست طائفتهم، ولم تكن ولادتي شخصياً خالية من مثل هذا النذر ... إذ أذكر أن والدتي قامت بواجب هذا النذر للقديس مار عبدا ...
هذه الروح من الاشتراك في تقدير قداسة الأولياء وتكريمهم يجب أن تتقوى في لبنان، لعل فيها السبيل للقضاء على التعصب الطائفي، وعلى روح التفرقة. وهذه الروح هي في الواقع أفضل ما في لبنان.

٥- لبنان بلد المفارقات

وختاما لا بد لي من الملاحظة: إن كيان هذا البلد الانتولوجي المعنوي قائم على مزج المتناقضات وربطها وبلورتها ، قائم على التناقض ذاته. هو بحد ذاته مفارقة قومية وتاريخية خاصة؛ وقد لا تكون الوحدة من نوعها - رغم ندرة مثل هذا التنوع والازدواج الذي يبطنها ويقوّمها ويظهرها - كما يتصور الكثيرون من البسطاء، وليس أقلهم، أصحاب المذاهب السياسية والإيديولوجيات المختلفة؛ ونسميهم بسطاء بالمعنى الساذج، لأنهم يفكرون بكل شيء وفق مثال واحد منطلقين من مفهوم

واحد ومحاولين إدخال كل شيء ضمن نظرة واحدة، اجتماعية، أو سياسية، أو اقتصادية أو حتى فلسفية للأوضاع وللأشياء .
وينسون أن الطبيعة لا تفعل أبداً كذلك، وليست هي أبداً كذلك ... فقد يبدو مثلاً أن أرباب النظريات القومية المختلفة يتصورون أن الأوطان يجب أن تركّب هكذا لا هكذا، وكذلك أصحاب النظريات الاجتماعية والاقتصادية يتصورون أن المجتمع يجب أن يكون هكذا لا هكذا، وقد يذهب بعض السذّج منهم إلى أن المجتمع يجب أن يقوم على رأسه لا على رجليه، ويخفى عليهم جميعاً أن على كل نظرة، أو مذهب في الأشياء، أن ينبثق من الواقع وأن يعود على الدوام - في التمنطق الصرف، وفي التصرف أيضاً - إلى الواقع .

- وهذا المزج ، هذا التناقض الذي نراه، قد لا يكون، كما قلت، الوحيد من نوعه، بل قد يكون ظاهرة الحياة، علامة الحياة، حيوية الحياة، علامات الكينونة والصيرورة ... لأن الحياة، حياة الأجناس الحيّة ذاتها - ولا يمكن فصل حياتنا نحن بظواهرها الاجتماعية والسياسية عن الحياة هذه - لأن الحياة بمطلقها قائمة على جمع التناقض وربط التناقض، في كل حين في سمط عقد الوجود، كما تنسجم وتندرج حبات اللآليء في العقد الفريد ... وأي ربط أكثر تناقضا من محاولة اتحاد الكثيف باللطيف - ثم هدم هذا التناقض لربط تناقض جديد يتعداه في تطور الصيرورة وذلك إلى ما شاء الله؟...
ولبنان من هذه الوجهة أزمة دائمة ولكنه أزمة محلولة، لأنها تخفي تناقضاً متبدلاً مستمراً. هكذا شاء القدر لبنان وهكذا علينا أن نرتضيه ونرجّيه.